بسم الله وكفى، والصَّلاة والسَّلام على سيدنا المصطفى، وعلى آله وصحبه ومن وفّى ووفى. وبعد:

فإنَّ الحديثَ عن القضاء والقدر شائكٌ وخطيرٌ لمن جهل حقيقته، وسَهْلٌ واضحٌ لمن فهم الدينَ، بوعي، وأحسنَ المقارنةَ بين النصوص الشرعية، وأيقن بعدالة الله تعالى.

ولقد انزلقَ كثيرٌ من المسلمين الجاهلين إلى مهاوي الذلِّ، والكسل، والتقاعس، والجبن، والتواكل؛ لجهلهم بحقيقة القضاء والقدر، فأهملوا الأسبابَ، وانتظروا النَّصْر والفلاح، دون أن يسلكوا سبيلَهما، ففاتهم النجاح.

ولو أردنا الإطالةَ والتفصيل لطال بنا المجال، وكثر المقال، ولكنْ خيرُ الكلام ما قلَّ ودلَّ.

يُقال: قدّر فلانٌ الشيء، أي: حدّد مقداره، وقدر الشيء بالشيء، أي: قاسه به وجعله على مقداره.

ويقال: قدّر الخياط، أي: قاس طولَ فلان وحجمه؛ فقَصَّ الثوبَ مناسباً لقامته.

وقدّر اللهُ الأمرَ: عَلِم وعَرَف ما فَعَله الإنسانُ من خير أو شرّ، فأمر وحكم، وقضى أن يكافأ عطاءً وثواباً إن أحسن، أو يُعاقب جزاءً وفاقاً إن أساء:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ – ٨]

ويُقال: قضى الله الشيءَ، أي: قدّره. وقضى الله بالشيء، أي: أمر به. ومنه:

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾ [الإسراء: 23]

والمنطلقُ الصَّحيحُ في هذا البحث هو العدالةُ الإلهيةُ الحق. قال تعالى:

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: 8]

﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ [الكهف: 49]

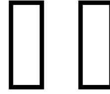
وفي الحديث القدسي: «يا عِبادي! إنِّي حرَّمْتُ الظُّلْمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرَّماً فَلا تظالموا... إلى قوله: يا عبادي! إنما هي أعمالُكم أحصيها عليكم، ثم أوفّيكم إياها، فمن وجدَ خَيراً فليحمدِ اللهَ، ومَن وَجَدَ غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسَه»[1].

اللهم رضِّنا بقضائك وقدرك، واجعلنا من الراشدين.

---

[1] (?) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه.

دمشق في 1 رمضان 1414هـ
وكتبه هشام الحمصي



المسؤولية تقتضي الحرية

لقد رتَّب اللـهُ تعـالى مسـؤوليةً على العبد البـالغ، العاقـل، المختـار، غـير المكـره، عن كل ما قـال، أو فعـل، أو عمـل. وهذه المسؤولية تقتضي الحريّة، وإلا كان العقابُ ظلماً:

﴿مَنْ عَمِـلَ صَـالِحاً فَلِنَفْسِـهِ وَمَنْ أَسَـاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46]

ولذلك يُعاقب القضاةُ المجرمين، لأن المجرمَ أساء بمحضِ إرادته، وقد خطَّط لجريمته. ولا تُعتبر نتيجـةُ الامتحـان للطلاب عادلـةً إلا إذا أُعطي الطـالبُ الحريـةَ الكاملـةَ في أن يكتب، ويجيب عن الأسئلة، كما يعرف ويريد.

وآدمُ أَوَّلُ مخلـــوقٍ من البشر مُنِع من أكل الشـــجرة، وأعطي حرية التصـرف، ولم يُكـره على تركهـا، وكـذا حـواء، فأكلا منها مختارين، فحرية التصرف منحها اللـهُ تعـالى للبشر منذ البداية، وفي ذلك تكريمٌ للإنسان وسعادة.

ولا ريبَ أَنَّ عَقيدةَ الجبر والإكراه تطيحُ بـالوحي والتَّنْزيـل، وتمنع النشاطَ الإنسانيَّ والعمل، وتُفقد الإنسان الأملَ، وتُغْريه بالذلّ والكسل، وهي تكذيبٌ لما جـاء عن الله تعـالى ورسـله الكرام من العدل:

﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام: 149]

وأهمُّ عناصر هذه الحجة:

1- العقل الذي وهبه الله للإنسـان، وجعله منـاطَ التكليـف؛ ليميزَ به بين الحق والباطـل، ويصـلَ به إلى الإيمـان بالخـالق العظيم وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

2- والفطرة التي فطر اللهُ الناسَ عليها:

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ*﴾ [الحجرات: 7-8]

3- أرسل الرسل مبشرين ومنذرين.

4- أنزل عليهم الكتبَ، فيها شرائعُ الله تعالى لعبـاده، فيها ما يأمرهم به، أو ينهاهم عنه.

5- أكـرم الإنسـانَ بحرية التصـرف والاختيـار، وحمَّله أمانـةً هي العقـل، يفكر به فيختـار الحـق، ويـرفض الباطـل، ويفعل

الخير، ويتجنب الشر، ويقوم بالتكاليف الشرعية كما شرعها الله تعالى، يفعل ذلك مختاراً لا مُكْرَهاً، فيسعد في دنياه وأخراه، فإن أساء فأعمل عقله وحواسه وطاقاته، وعصى ربه، خاب وخسر؛ لأنه آثر أن يكونَ ظلوماً لنفسه، ومجتمعه، ومستقبله، جهولاً، يخبط خبط عشواء:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [الأحزاب: 72]

وإنما أعطاه حريةَ التصرُّفِ ليكرمه بذلك، ويسعده. فالحرية أغْلى ما يملكُ الإنسان، ويسعد به. والله خلق الإنسانَ لأنَّه أرادَ أن يُوْجد مخلوقاً يعبده، ويستجيب له عن طواعية، وقناعة، وتعَقّل، ورضا، ورسم له طريقَ النجاة والفوز بالجنة، يسير إليها وبيده خيطٌ من حرير لا سلسلة من حديد.

ألا ما أسعدَ الإنسان حين يذوقُ حلاوةَ جهده وإخلاصه، فيؤمن عن يقين، ويستقيم عن رضا.

وما أسعد الطالبَ حين ينجح بجهده ودراسته، فيخرج إلى الحياة العملية بسلاحِ العلم الصَّحيح، فيعطي العطاءَ النافع، ويثمر الثمرَ اليانع.

ولن يسعدَ إنسانٌ عاش مقهوراً، أو سِيْقَ إلى الاعتقاد، أو إلى الخير مُجْبراً.

ولن يسعدَ طالبٌ نجح غشَّا وزوراً، ولن يفلح في الحياة العملية، ولن ينتج خيراً، ولن يعيشَ مسروراً.

وهل خُلِقَ الإنسانُ إلا ليسعدَ في الدارين؟! يعيشُ في الدنيا يسابقُ غيره في ساحة السَّعي للخلود بصحبة الخالق يوم الدين، فإذا فاز في سباق الإيمان والعمل الصالح، حظي بالمغفرة والرضا والجنة:

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: 110]

6- جعل بابَ الهداية مفتوحاً لمن أراد. فالرسلُ تدلُّ على طريق الإيمان، والحق، والفضائل، وتدعو إليه بالحكمة والحسنى، دون إكراه ولا قسر:

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52]

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون: 73]

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: 21-22]

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾

[المائدة: 92]

فإن وَجَدَ اللهُ تعالى من العبد صِدْقاً وإخلاصاً في الإقبال على طلب الحق، والإيمان، والهدى، وفَّقه لذلك، ومكّن ذلك في فؤاده.

﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: 56]

أي: إنَّ مهمتك أيها الرسول الكريم: التبليغ، والدلالة، والإرشاد، أما تمكين الهدى من القلوب فهو بيد الله وحده. فهو سبحانه وتعالى:

﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: 27]

وقد يسّر سبيل الهداية لكل الناس، وأما من طغى، وأعرض، وآثر الحياة الدنيا، فقد فعل ذلك بمحض إرادته، فلابد من عقابه:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: 17]

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: 5]

فهم الذين أرادوا الزيغَ، وأَصرُّوا عليه، فتركهم وشأنهم، فتابعوا طريق الضلال مختارين لا مكرهين، إذ:

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: 256]

فالرشدُ واضحٌ، ميسر، محبّب للنفوس، والغي واضح، معسَّر، مكره للنفوس كما رأيت من قبل في سورة الحجرات. والله تعالى قد سوّى نفسَ الإنسان، وفَطَرها على حُبِّ الإيمان، وزيَّن ذلك في قلوب الناس، وكرَّه إليهم الكفر، والفسوق، والعصيان، فإن استجابوا لتلك الفطرة الزكية النقية كانوا هم الراشدين.

وقد جَعَلَ اللهُ تعالى مسؤوليةَ الصَّغير على والديه، وحمَّلهما أمانةَ تربيته وتوجيهه نحو الإيمان، والحق، والفضائل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: 6]

وقد بيَّن رسول الله ﷺ أنَّ كلَّ مولود يُولد على الفطرة، وأنَّ أبويه هما اللذان يجنحان به نحو الكفر والضلال إن كانا على غير هدى؛ لأنه يقلِّد ويستجيب دون تمييز، ومقتضى العدالة الإلهية أن يُرفع القلمُ والحسابُ عن الطفل وهو صغير، قال ﷺ: «رُفع القلمُ عن ثلاث: عن الصبي حتى يبلغ،

والمجنون حتى يعقل، والنائم حتى يستيقظ»[1] لأنَّ تصرُّفهم عن غير وعي ولا إرادة.

وإذا كان الفلاَّحُ يُسوِّي الأرض، أي: يزيل منها الحشائش الضارة، فيحرثها ويمهدها لتصبح قابلةً للزراعة، فقد يزرعُ فيها ما يحل وينفع، وهو مطلوبٌ منه، أو ما يضرُّ وهو محرَّمٌ عليه. والله عز وجل قد سوَّى نفسَ الإنسان، ونقَّاها، وفطرها على حب الهدى، والخير، وكره الضلالة والشر:

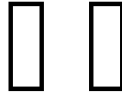
﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: 7-8]

وجعل مسؤولية الطفل على مَن ربَّاه وهو صغير، فإذا بلغ عاقلاً صار مسؤولاً. والتوجيهُ نحو الخير مطلوب ومفروض، فإن كان نحو الشر فهو محرّم ومرفوض:

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: 7-8]

---

[1] (?) رواه أحمد وأبو داود.



الفرق بين المشيئة والرضا

في بحث القضاء والقدر يجبُ أن نفرِّق بين المشيئة والرضا، فالله تعالى يشاءُ كلَّ ما يجري في هذا الكون أو يكون، وما من حركة ولا سكون إلا بإذنه، ومشيئته، وإرادته، فإن أراد الشيءَ كان، وإلا لم يكن. وكلُّ ذلك لحكمةٍ أرادها، وهو الحكيم الخبير:

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: 29]

فهو سُبحانه وتعالى يريدُ الإيمانَ، والحقَّ، والخير، والفضائل، ويرضى بذلك، ويريدُ الكفر، والباطل، والشر، والرذيلة، ولكنه لا يرضى بها، يريدُها لأنه أعطى حريةَ التصرُّف، ولم يُكره أحداً على خير ولا شرّ:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: 48]

أي: ولو شاء الله أن يُكرهَكم على شيء لجعلكم جميعاً على ملَّة واحدة، ولكنه أعطاكُم حريةَ التصرُّف؛ لأنه خلقكم ليمتحنكم:

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: 2]

فإذا أردتم النجاحَ في سباق الخلود بصحبة الخالق العظيم، والنَّجاة من عِقابه الأليم، فاستبقوا الخيرات، فإليه المرجعُ والمآب، حيثُ جزيل الثواب، أو شديد العقاب:

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: 25-26]

ويفسر ما مرّ معنا قوله تعالى في سورة الأنعام:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [35]

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾ [107]

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ[112]﴾

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ[149]﴾

والمفعول به لفعل شاء محذوف، أي: لو شاء إكراهكم على شيء لأكرهكم على الهدى، ولكن أعطاكُم حريةَ التصرف ليسعدكم، ويصدق الابتلاء والامتحان. وفي حرية التصرُّف والاختيار كرامةٌ لكم وسعادة.

وهذه الآياتُ من سورة الأنعام – ولها في القرآن أمثالٌ أخرى – واضحةُ الدلالة على أنَّ الله تعالى منح الإنسانَ

حرية التصرف لامتحانه وسعادته، وأمره بما ينجيه، ونهاه عمَّا يُرديه، فإن استجابَ أراد اللهُ تعالى ورضي، وإن عصى أراد الله ولم يَرْضَ.

قال تعالى:

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزمر: 7]

وسأضرب لك – عزيزي القارئ – مثلاً تدركُ منه الفرقَ بين المشيئة والرضا. كل والد يحِبُّ ولده، ويرجو له التوفيق، والسعادة، والرضا. فإن كان عاقًّا فاسِداً نصحه، وصبر عليه كثيراً، فإذا تمادى الولدُ في عقوقه وفساده، طرده والده من بيته بإرادته، حتى إذا ذهبَ الولدُ دمعتْ عينا والده؛ لأنه لا يرضى بعقوق وضياع ولده. وقُلْ مثلَ ذلك في الأستاذ يريدُ ويرجو لتلميذه النجاح، والتفوق، فإذا تكاسلَ التلميذُ وضعَ له الأستاذُ علامة الإخفاق والرسوب بإرادته؛ لأن ذلك هو العدالةُ والإنصاف للفرد والمجتمع، ولكنَّ قلبَ الأستاذ يعتصرُ أسًى وألماً على طالبه الراسب؛ لأنه لا يرضى له الرسوبَ، ولا تطيبُ نفسُه بذلك.

ومن هذا الفهم والمنطلق السَّليم نقول:

إِنَّ اللهَ يُريدُ الانتحار والحسد ولا يرضى بهما؛ لأنَّ كلاًّ من المنتحر والحاسد حرّ التصرُّف كما رأينا وأثبتنا من قبل، ومسؤول عن تصرُّفه هذا، ولا يقع شيءٌ في الكون إلا بمشيئة الله، وهو:

﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: 107]

والانتحارُ والحسدُ كبيرتان نهى الله تعالى ورسوله عنهما نهياً قاطعاً، ففي سورة النساء [29]:

﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾

وفي سورة طه [131]:

﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾

وفي سورة الفلق [5]:

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: 5]

وفي الحديث الشريف: «مَن تردَّى مِن جبلٍ فقتل نفسَه فهو في نار جهنم يتردّى خالداً فيها أبداً...»[1].

ويُقاس على ذلك كلُّ وسيلة للانتحار. وفي الحديث أيضاً:

---

[1] (?) رواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي.

«ولا تحاسدوا»[2] بالنهي الجازم.

فإذا أصرَّ المنتحرُ على قتل نفسه فمات، وأصرَّ الحاسدُ على كُرْه نِعَم الله تعالى على عباده، فحسدَ الناسَ عليها، مادية كانت أو معنوية، وسعى في ذهابها عنهم بشتى وسائل الكيد، والمكر، والوِشاية، والأذى؛ فحصل من الحسد ضررٌ للمحسود. فإنَّ موتَ المنتحر، ونزول الضَّرر بالمحسود، لا يقعان إلا بقضاء الله وإرادته. وغاية ما في الأمر أنهما وافقا قدر الله وقَضاءه، زماناً ومكاناً، فوقع ما قدَّر اللهُ وقضى، وعُوقب المنتحرُ والحاسدُ على فِعْلهما، بحيث لو لم ينتحر الأولُ، ولم يحسد الثاني، لوقع ما قدّره الله من موت أو ضرر.

هذا وإنَّ الموتَ ليس نتيجةَ الحوادث، فقد تقعُ أشدُّ الحوادث ولا يعقبها موت؛ لأن سببَ الموت واحدٌ لا يتعدَّد، هو انقضاءُ الأجل بمشيئة الله وقدره وقضائه. فكم من أناس أقدموا على الانتحار بأعنف الوسائل ولم يموتوا، وأنقذوا، وعُولجوا، وعاشوا بعد ذلك طويلاً! وكم من حاسدين حسدوا، والغيظ يملأ قلوبهم، فلم يحصل من حسدهم شيء من ضرر أو أذى!

ففي سورة الأعراف [34]:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾

وفي سورة يونس [49]:

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾

وفي سورة النحل [61]:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾

وأخطأ الشاعر حين قال:

من لم يمتْ بالسَّيفِ   تعددتِ الأسبابُ

لأنَّ سببَ الموت واحد لا يتعدد، ألَا وهو (انقضاء الأجل):

كم مريض قد عاشَ   بعد موتِ الطبيبِ

قد يُصابُ القطا فينجو   ويحلُّ البلاءُ بالصّيّادِ

* * *

---

[2] (?) رواه البخاري ومسلم.

تزوَّدْ من الدنيا فإنك لا ... إذا جنَّ ليلٌ هل تعيشُ

فكمْ من صحيحٍ مات ... وكمْ من عليلٍ عاش

وكم من فتىً يمسي ... وقد نُسِجَتْ أكفانُه وهو

فقد يُصاب الجبان في آخر الصفِّ، وينجو مقـارعُ الأبطـال. وسيدنا خالد بن الوليد – رضي الله عنه – خاضَ من الحروب قبل إسلامه وبعد إسلامه ما لا يحصى، وكان الشجاعَ المقدامَ في أول الصـــفوف، وتمنّى أن يمـــوتَ شـــهيداً، فلم يمت إلا على فراشه.

والإنسـان على أية حـال مُطـالب أن يسـلكَ سُبُلَ الخـير، والعلم، والسلامة، والعافية، طالباً من الله العـونَ، والتوفيـق، والسَّداد، والرَّشاد.

وفي سورة يوسف [64]:

﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

فـــإن أفلح ونجا فبقـــدر الله وقضـــائه، وإن خـــاب وأخفق فبقدر الله وقضائه، وكلٌ لحكمةٍ أرادها اللـهُ، والله هو الحكيم الخبير.

والتاريخُ يُحـدِّثنا أنَّ أبا عبيـدة بن الجـراح – رضي الله عنه – لما أراد أن يتـــــابعَ زحفه وفتوحاته في بلاد الشـــــام، وقد انتشر طاعون عمواس، أمره عمـرُ بن الخطـاب – رضي الله عنه – بالانحســـار عن مكـــان الطـــاعون، وحماية الجيش من الوبـاء، وهو ما يُسـمَّى اليـوم (الحجر الصّـحي) فأرسل له أبو عبيدة: أنفرُّ من قضاء الله وقدره؟ فأجابه عمر: نعم، نفرُّ من قضاء الله وقدره إلى قضـاء الله وقـدره. أرأيت يا أبا عبيـدة! لو كنتَ راعي غنم، وأمامك أرضان: الأولى فيها خِصب ونماء، والثانية خاوية جـــدوب، فـــأيّ الأرضـــين تـــرعى فيها غنمـــك؟ فأجابـه: في الأولى، ذات الخصب والنمـاء. فقـال: إذاً فاحفـظِ الجيشَ من الوباء والداء، واسلكْ به سبيلَ النجـاة، والسـلامة، والهناء.

ولشـدّ ما كـان فرحُه عظيمـاً حين أخـبره أحـدُ الصَّـحابة، وأقسم له أنه سمع الرسول ﷺ يقول: «إذا سمعتم بالطّـاعون في أرض فلا تـــدخلوها، وإذا كنتم فيها فلا تخرجـــوا منهـــا»[1]. فأقام الدَّليلَ على أبي عبيدة عقلاً ونقلاً. وفي سورة البقرة [195]:

﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾

---

[1] (?) رواه البخاري ومسلم.

وفي سورة النساء [71]:

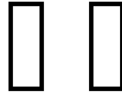
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾

ورحم الله مَن قال:

يا راعيَ الشَّاءِ لا تهملْ ... فأنتَ عن كلِّ ما

إنِّي لفي مَنْزلٍ ما زلتُ ... على يقينٍ بأني عنه

كُلْ ما بدا لك فالآكالُ ... وكلُّ ذي أُكُلٍ لا بُدَّ



الفرق بين المصيبة والمعصية

لا بُدَّ أن نميزَ بين المصيبة والمعصية.

فالمعصيةُ من العبد، وهو مسؤول، ومُعاقَبٌ عليها؛ لأنه حُرُّ التصـرُّف، وقد فعلها راضيـاً بهـا، سـاعياً لهـا، مختـارًا، ولا مُكْرَهـاً، ولكنه لم يَفْعَلْها قسـراً عن إرادة اللـه، إذ لا يجـري في الكون شيءٌ إلا بإذن الله وإرادته. وقد رأينا أنَّ اللهَ يريـدُ المعصية، ولكنه لا يرضى بها، وشرحنا ذلك في حينه.

وقد قال بعضُ العلماء: نحن نؤمنُ بالقـدر والقضـاء، ونحتجُّ بهما في المصـــائب لا في المعاصي والمعـــائب. فاحتجـــاجُ العاصي بالقضا تبجُّح لا يُرتضى.

والله تعـــالى قد خَلَـــقَ في العبد طاقـــةً على الحركـــة، والقـول، والعمـل، وأمـره أن يسـتخدمَها في الخـير، والحـق، والإيمان، والفضائل، لا في الشرّ، والباطل، والكفر، والرذائـل. وطالبه بإصـلاح نفسـه، وحـذَّره من فسـادها، ووعـده إن هو امتثل واستجاب أن يفلح، وأوعده إن هو عصى، وأعـرض عن الله، أن يخيب ويندم. قال تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 9-10]

وأصـابَ الحكمـةَ، وكـان على سـداد ورشـاد، مَن قـال: «تُنسب الأعمـالُ إلى الله خَلْقـاً وإيجـاداً، وإلى العبد كسـباً وإرادة».

ففي اليد طاقـةٌ يمكن أن تُسـتخدم لخـير أو شـر، والخـير مفروضٌ والشر حرام ومرفـوض، وفي العين طاقـةٌ يمكن أن تُفتح لحلال أو حـــرام، والحلال مفـــروض، والحلال ممنـــوع ومرفـوض. وفي الحديد يمكن أن تُسـتخدم للجهـاد، والـدفاع، وردّ الظلم والعـدوان، وفي سـبيل إعلاء كلمة اللـه، وحماية المـؤمن أن يفتن في دينـه، أو يُسـاء إلى حقوقه ومقدّسـاته، وذلك مطلـــوب ومفـــروض، ويمكن أن تُسـتخدم للجريمـــة، والظلم، وإقامة صـــروح الطغيـــان والفســـاد، وذلك حـــرام ومرفوض:

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَـدِيدٌ وَمَنَـافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: 25]

والكتـاب السـماوي الوحيـدُ الـذي اهتمَّ بالحديد هو القـرآنُ الكـريم، فقد أفـرد الله تعـالى له سـورة كاملـة، هي سـورة

الحديد. وإن تعجبْ فعجب أن أمةَ القرآن، أمة سـورة الحديـد، هم أضعف الناس وأقلّهم خبرةً في مجال صناعة الحديد؛ الذي يُعتـبر أهم المعـادن في مضـمار الحضـارة، وسـاحة الحـروب والجهاد!.

إنَّ حبذَ الدنيا، وكراهية الموت، جعلتهم على كـثرتهم غثـاءً كغثـاء السـيل، وقـذفت في قلـوبهم الـوهن فتجـرأ عليهم عدوهم.

ولقد كان مِن كَذِب الكفار، وسـخفهم، أنهم ادّعـوا أنَّ اللهِ أرغمهم وآباءهم على الشرك، تهرُّباً من المسؤولية، وإصـراراً على الباطل والكفر، فردذ اللهُ عليهم ردًّا مفحماً في سـورة الأنعام [148]:

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْـرَكُوا لَـوْ شَـاءَ اللَّهُ مَا أَشْـرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَـذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُـوا بَأْسَنَا قُـلْ هَـلْ عِنْـدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُـوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُـونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾

فهم كاذبون فيما ادّعوا، وما كفروا إلا باختيارهم. وقد رأينا أنَّ الإنسان حـرُّ التصـرف، مسـؤول. ولـذا جـاءت الآية [149] من سورة الأنعام نفسها تتابع المعنى، وتقـرّر حرّيـةَ التصـرُّف عند الإنسان، وأنَّ لله الحجة البالغة، إذ لم يُكره أحداً:

﴿قُـلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَـةُ فَلَـوْ شَـاءَ لَهَـدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: 149]

أي: لو شـاء إكـراهكم على شـيء لأكـرهكم على الهـدى، ولكنه منحكم حريـةَ التصـرُّف؛ لتحقيق سـعادتكم في الـدنيا والآخرة، إذ لا سعادة بدون حرية، فله عليكم الحجّةُ القاطعـةُ البالغةُ، ولا دليلَ ولا حجةَ لكم فيما أقدمتم عليه من كفر، أو تحـريم مُبـاح، أو تحليل حـرام؛ إنما تتّبعـون أهـواءكم. وفي سورة الأعراف [28 ـ 29] ردّ مُفحم آخر للمشـركين، الـذين ادعوا كـذباً وزوراً: أن الله أمـرهم بما يقومـون به من سـوء، وفحشاء، وظلم:

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَـدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَـرَ رَبِّي بِالْقِسْـطِ وَأَقِيمُـوا وُجُـوهَكُمْ عِنْـدَ كُـلِّ مَسْـجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: 28-29]

والآية [30] بعد ذلك بيَّنتِ السـببَ في ضـلالهم، وكفـرهم، وهو أنهم اتخـذوا الشَّـياطين، شـياطين الإِنس والجن، أوليـاء لهم من دُون الله، وظنُّوا أنَّهم على صواب في ذلك:

﴿فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 30]

فالناسُ فريقان، فريق اهتدى بهدى الله تعالى، وبابه مفتوح لكل من أراد وأقبل مخلصاً. وفريق ضلَّ مختارًا، فظهرت به وعليه آثارُ الضلالة من ندم، وخسارة؛ لأنّهم اتخذوا الشياطين أولياء... وجملة:

﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾

جملة استئنافية تعليلية، بيّنت سببَ ضلالهم وخسارتهم، وأَنَّ ذلك باختيارهم، لا بأمر من الله؛ لأن اللهَ لا يأمر بالفحشاء، بل بالحق، والعدل، والفضيلة.

والصَّحابةُ الكرام - رضي الله عنهم - قد عاشوا فترةَ الوحي وسألوا الرسول ﷺ عن كل شيء أشكلَ عليهم. وفي تاريخهم المشرق ما يدلُّ على فَهْم عميق للقضاء والقدر، فعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وهو الشديدُ في الحق، أُتي بسارق توفرت فيه شروطُ قطع اليد، فأمر عمر بقطع يده، فاستعطفه مُدَّعياً أنه لم يسرقْ قبلها قط، وأنه تاب، ولن يعود لمثلها أبداً، وأُقيم عليه الحد، فلحق به سيدنا علي - كرَّم الله وجهه - وقال له: إنَّ الذي أعرفه من عدالة الله ورحمته أنه لا يأخذ العبدَ من أوَّل ذنبٍ، فأسألك بالله أن تصدقني، فأجابه: لقد سرقت قبل هذه عشرين مرة أو أكثر، فلم أَرْعَوِ، ولم أزدجر حتى وقعتُ فيما أستحق من عقاب.

ألا ما أعدل الله في حكمه وخلقه! وما أجهل الإنسانَ وما أظلمه!:

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34]

وسيدنا علي - رضي الله عنه - أُتي بسارق فسأله: لِمَ سرقتَ؟ ظانًّا أن له عذراً يخفّف عنه. فأجاب السَّارق: قضاءً وقدراً. فظهر الغضبُ على وجه أمير المؤمنين علي - كرم الله وجهه - وقال: «اقطعوا يدَه لأنه سرق، واجلدوه ثمانين جلدةً لأنه افترى على الله الكذب، فالقضاء والقدر لا يسلبان من العبد الاختيار، ولا يوقعانه في حيّز الاضطرار».

وفي هذه القصة تأكيدٌ على حرية الإنسان في التصرف، وأنه مسؤولٌ عن قوله وعمله.

ولعلَّ من الجميل هنا أن نذكرَ قولَ سيدنا علي - رضي الله عنه - أيضاً: «من اتّهم مسلماً بفاحشة - أي: قذفه بها - أقمتُ عليه حدَّ القذف ثمانين جلدة إن لم يأت ببيّنة، فإن

اتهم رسولاً أو نبياً جلدتُه مئة وستين جلدة» أي: ضـاعفت له العقوبة؛ لأن الرسلَ والأنبياء قـدوة معصـومون، وفي الطعن بهم كذبٌ، وافتراء، وتضليل للناس، وإفساد للأمة.

ففي سورة ص الآية [82 و 83] على لسان إبليس:

﴿قَـالَ فَبِعِزَّتِـكَ لَأُغْـوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَـادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: 82-83]

والرسل والأنبياء هم أول العباد المخلَصين.

وفي سورة يوسف [24]:

﴿كَـذَلِكَ لِنَصْـرِفَ عَنْـهُ السُّـوءَ وَالْفَحْشَـاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾

فالشـيطانُ يقـرُّ أن لا سـلطانَ له على أهل التقـوى، والإيمـان، والإخلاص ولاسـيما الرسل والأنبيـاء. وصـدق الله العظيم:

﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَـهُ سُـلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: 99]

ولقد حرَّف اليهودُ التوراةَ، واشـتروا بآيـات الله ثمنـاً قليلاً، واتَّهموا الأنبياءَ والرسل، بما لا يليقُ بهم خُلقاً، وعقلاً، وافتروا على الله الكذبَ، ودسّوا من الإسـرائيليات المضـلّلة المنحرفة الكثير؛ مما ينبغي التنبه له، ورفضـه، وشـجبه، وإنكـاره، حيث قرأتـه، أو سـمعته أو وجدتـه، حِرْصاً على الحقيقـة، وحفاظـاً على أخلاق الأفراد والأمم.

ولو رجعتَ إلى الأصول والنصوص الصحيحة لـرأيتَ عصـمة الرسل والأنبياء حقاً لا ريب فيه، فهم:

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَـداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾ [الأحزاب: 39]

أمَّا المصـيبةُ فهي من الله تعـالى، ولكنها تصـيبُ الإنسـانَ لحكمةٍ أرادها الله:

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِـيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِـكُمْ إِلَّا فِي كِتَـابٍ مِنْ قَبْـلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِـكَ عَلَى اللَّهِ يَسِـيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَـاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُـلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: 22-23]

وكلمة ﴿لِكَيْلا﴾ تفيـدُ التعليـلَ، فما من مصـيبة إلا بسـبب، ولها عند الله هـدفٌ معلـومٌ، وأجل مسـمَّى، وحكمة بالغـة، تظهر للمتبصرين، وتَخفى على الغافلين.

وفي سورة النساء [78]:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَـوْتُ وَلَـوْ كُنْتُمْ فِي بُـرُوجٍ مُشَـيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَـيِّئَةٌ

يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُل كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾

لقد جرتْ عادةُ الناس قديماً وحديثاً أنهم إن نالوا خيراً، أو فازوا به، قالوا: هذا كله من عند الله، وإن نزل بهم شر، أو أصابهم سوء عقاباً لهم على ضلالهم وانحرافهم، نسبوا ذلك لمن يكرهون أو يحسدون، وقالوا له: هذه من عندك. وهذا بعضُ ما قاله الكفار لرسول الله ﷺ كما في الآية الكريمة، فردَّ اللهُ تعالى عليهم، مُبَيِّناً أنهم قومٌ جاهلون، لا يفقهون، ولا يدركون الحقائقَ لعدم إيمانهم اليقيني، إذ لو كمل إيمانُهم لعلموا، وأيقنوا أنَّ كلاًّ من الحسنة والسيئة من عند الله وحده، فهُو سبحانه يجزي المحسنين خيراً مما عملوا، ويجازي المسيئين بمثل ما أساؤوا، زجراً وردعاً لهم في الدنيا، وجزاءً وفاقاً في الآخرة. فأنت تقرأ في سورة النجم [3]:

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾

وفي سورة التحريم [7]:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

وفي سورة سبأ قصَّة قومٍ عاشوا في نعيم كبير، فكفروا بأنعم الله، وتحاسدوا وتباغضوا، وأعرضوا عن الله وشريعته، فهدم الله عليهم سدَّ مأرب، وأرسل عليهم سيلَ العرم، فتفرقوا أيادي سبأ، وتشتَّتوا في البلاد، ومُزّقوا كلَّ مُمَزَّق. لِمَ كان ذلك العذاب؟ كان بسبب كُفرهم:

﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: 17]

وفي سورة يس يذكر لنا اللهُ تعالى أنَّ أصحاب قرية - والأغلب أنها إنطاكية - جاءها المرسلون، فكفروا بهم، وقالوا لهم:

﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ [يس: 18]

أي: تشاءمنا منكم؛ لانقطاع المطر عنا، ونزول القحط والبلاء بنا. فكان جوابُ المرسلين لهم:

﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [يس: 19]

أي: إنَّ كُفْركم وإعراضكم عن الله والحق هو سببُ ما حلَّ بكم من سوء، وبلاء، فأنتم لا تهتدون - وإن ذكرتم - لأنكم ضالُّون، مسرفون، مصرُّون على ذلك.

وآية سـورة النسـاء [78] الـتي شـرحناها، لو تابعنا التلاوة لقرأنا بعدها الآية [79]:

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾

فالحسنةُ من الله تعالى وبفضل منه:

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِـرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [سبأ: 4]

والسيئة ذات شطرين:

1- سبب.

2- وعقوبة.

فأما السَّببُ فهو من العبد؛ لكفره، وظلمه، وإعراضه:

﴿وَمَا أَصَـابَكُمْ مِنْ مُصِـيبَةٍ فَبِمَا كَسَـبَتْ أَيْـدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: 30]

وأما العقوبةُ فهي من الله تعالى:

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَـانَتْ مِرْصَـاداً * لِلطَّاغِينَ مَآبـاً * لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً * لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلا شَـرَاباً * إِلَّا حَمِيمـاً وَغَسَّـاقاً * إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً * جَزَاءً وِفَاقاً﴾ [النبأ: 21-26]

فالعقوبةُ إذاً جزاءٌ عادل، وفـاق لما اقـترفت أيـدي الكفـار والمجرمين، ولما فرّطوا في جنب الله:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَاباً * وَكَـذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِـذَّاباً * وَكُـلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً * فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيـدَكُمْ إِلَّا عَـذَاباً﴾ [النبـأ: 27-30]

وهكـذا يظهـرُ لنا العـدلُ الإلهي الحـقُّ جليًّا في الثـواب والعقاب:

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسـراء: 7]

﴿مَنْ عَمِـلَ صَـالِحاً فَلِنَفْسِـهِ وَمَنْ أَسَـاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46]

وهاتان الآيتان تفسِّـران بوضـوحٍ آيـتي النسـاء السـابقتين [78-79] فتأمل.

وفي سورة الجن [10]:

﴿وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيـدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾

ففعل ﴿أَرَادَ﴾ بُني للمجهول حيث ذكر الشر ﴿أُرِيدَ﴾. وبُـني للمعلـــوم حيث ذكر الرشد والخـــير. وذكر الفاعـــل: ﴿رَبُّهُمْ ﴾ إشارة إلى أن الحسنة والخـير من اللـه، أما السـيئة ﴿الشر﴾ فسـببها جهل الإنسـان وفسـقه، والعقوبة من الله تعـالى بعد

ذلك عدل، وردع، وزجر.
أمَّا حين يُصاب الأنبياءُ والصالحون، فإنَّ في ذلك رفعاً لدرجاتهم، وزيادة في ثوابهم وحسناتهم، وتنبيهاً للنَّاس كي يقتدوا بهم في صبرهم، ورضاهم بقضاء الله وقدره، وحُسْن تصرُّفهم في الملمّات بما يرضي الله تعالى، فلا يقفوا عن العمل، ولا يفقدوا الأمل، يصبرون في الضرّاء، ويشكرون في السَّرَّاء.

وفي الحديث الشريف: «ما يُصاب المسلمُ من نصب، ولا وصب، ولا همّ، ولا غمّ، ولا أذى، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفَّر اللهُ بذلك من خطاياه»[1].

و: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كلّه له خير، وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته ضرّاء صبر، فكان خيراً له، وإن أصابته سرّاء شكر، فكان خيراً له»[2].

والإنسانُ مطالبٌ أن يأخذَ حذره، ويحمي نفسه من كلِّ شر وضرر، ويستدرك أمره؛ فيصحح خطأه، ويصلح ما أفسد، ويتعاطى لكلّ شيء أسبابَه، ويسلك إليه السَّبيلَ المشروع مستفيداً من العلوم، سائراً في دروب السَّلامة والأمن.

أما الذين يُهملون الأسبابَ، ويفرّطون بالواجبات، ويُعَرِّضون أنفسَهم للضرر والضرار، حتى إذا انزلقوا إلى خطرٍ، أو صاروا إلى ما لا تُحمد عُقباه، تعلَّلوا بالقضاء والقدر، فهم يجهلون، أو يتجاهلون، أنَّ ما فعلوه انتحارٌ، أو سعيٌ لانهيار، أو اندثار، يسألون عنه، ويعاقبون.

وما أجمل أن نذكّر هنا بحديث رسول الله ﷺ: «اعقلها وتوكَّل»[3] فلا عُذْرَ لمهملٍ، أو مفرط، أو مسيء، أو مفسد، أو جاهل:

﴿وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: 36]

إذ لا عُذْرَ لهم.

أما مصيبةُ الموت فلا مجال للحذر منها، ولا محيص عنها، فهي مرتبطةٌ بانقضاء الأجل. وخلاصة ما يُطالب به المؤمنُ المسلم أن يَستقيم دائماً، فإذا جاءته المنيةُ فجأة ذهبَ إلى الله راضياً مرضياً:

﴿وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]

والله تعالى يخاطبه فيقول له:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً

---
1 (?) رواه البخاري ومسلم.
2 (?) رواه أحمد ومسلم.
3 (?) رواه الترمذي وابن حبان.

* فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي [الفجر: 27-30]

ولله درُّ مضن قال:

هو الموتُ لم ينْج منه ... ولو أنه في بروجٍ تُشَيَّد

يموتُ الصَّغيرُ كما أنه ... يموتُ الكبير فهل من

وما المرءُ إلا رهينُ ... فسبحانَ الذي بالبقاء

مصابُكَ إن شئتَ ... ففكّر بموتِ النبيِّ

ومن قال:

إنَّ الطبيبَ له في ... مادام في أجلِ الإنسان

حتى إذا ما انقضتْ ... حارَ الطبيبُ وخانَتْهُ

وقد أمرنا رسول الله أن نطلبَ السـلامة، وأن لا نـدعوَ بشر أو سوء، خشية أن تُصيب سـاعة إجابـة، فيسـتجاب لنـا، فنخيب، ونندم، فخيرُ الناس مَن طال عمره، وحَسُن عمله.

والحيـاةُ فرصـةٌ لعمـل صـالح، فلنغتنم كـلَّ لحظة فيها بالعمل الصـالح، يرضي الله تعـالى، فنسـعد في دنياناً وأخرانـا، والليل والنهـار فرصـةٌ لمن أراد أن يـذكَّر أو أراد شكوراً:

يا نفسُ إني قائلٌ ... مقالةً من مرشدٍ ناصح

ما صاحبَ الإنسان في ... غيرُ التقى والعمل

وفي القرآن الكريم أدلَّةٌ كثيرة على حرية التصرف، ونسبة العمل من خير أو شر إلى العبد نفسه، مختاراً دون إكراه:

وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ [الرعد: 27]

قال تعالى:

فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً [المزمل: 19]

فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً [النبأ: 39]

لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ [التكوير: 28]

لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ [المدثر: 37]

كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ [المدثر: 54-55]

إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا [الإسـراء: 7]

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَـنَةٌ وَلَـدَارُ الْآخِـرَةِ خَيْـرٌ [النحل: 30]

وفي الفاتحة:

صِـــرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْـــرِ الْمَغْضُـــوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ [الفاتحة: 7]

ولم يقل: - ولا المضلَّلين – فهم قد ضـلُّوا مختـارين، ولـذا

جاءتْ بصيغة اسم الفاعل لا المفعول.

ويظهرُ لك ذلك جليًّا في موقف المشركين واعتذارهم يوم الـدِّين، حين يُظهر الحـق، ويعلن، وتلـزمهم الحجة فينـدمون حيث لا ينفع النـدم، ويتمنـون العـودة إلى الـدنيا من جديد ليصلحوا حالهم، ويسـتدركوا أمـرهم، ولكنهم لا يُجـابون؛ لأنهم كـاذبون، مصـرُّون على الضـلال والكفر باختيـارهم، ولو ردّوا إلى الدنيا لعادوا لما نُهـوا عنه من كفر وضـلال، ففي سـورة الأنعام [27 و 28]:

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُـونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

وفي سورة المؤمنون [99-100]:

﴿حَتَّى إِذَا جَـاءَ أَحَـدَهُمُ الْمَـوْتُ قَـالَ رَبِّ ارْجِعُـونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُـوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

ويستعتبون بعد أن ينفخ في الصور ويدخلوا جهنم:

﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ[105] ﴾

فيعترفون بضلالهم، وأنهم ضلّوا باختيارهم:

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ[106] ﴾

ويطلبون الرحمة، وأن يعطوا فرصة أخرى لعلهم يهتدون:

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ[107] ﴾

فيقرّعـون، ويـذكّرون باسـتهزائهم بأهل الحق في الـدنيا، والضحك منهم، والإساءة إليهم بإصرار وعناد:

﴿قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيـقٌ مِنْ عِبَـادِي يَقُولُـونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَـاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْـرُ الـرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ [المؤمنون: 108-110]

فالعقابُ عادلٌ، جاء جزاءً وفاقاً لما جنتْ أيديهم، واقترفوا من إثم.

ولعل هـذه العدالة الإلهية الكاملة تتضـحُ لنا في سـورة العنكبوت الآية [40] حيث ذكرَ اللهُ تعـالى أنـواعَ العقـاب في الدنيا قبل الآخرة لمن ظلم وكفر، مبيِّناً أنَّ ذلك العقـابَ إنما نزلَ بهم لظلمهم:

﴿فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً﴾

- أي: كقوم لوط -:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾

- أي: كأهل مدين -:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾
- أي: كقارون وأمثاله :-
﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾
- أي: كقوم نوح الكافرين وفرعون وأعوانه :-
﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾
وآيات سورة سبأ [15-17] تدعم هذا المعنى بوضوح:
﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾
فالعقابُ الذي نزل بهم هو عقابٌ عادلٌ بسبب كفرهم بأنهم الله، وإعراضهم عن أوامره.
وفي سورة النبأ الآيات [21-30]:
﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً * لِلطَّاغِينَ مَآباً * لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً * لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلا شَرَاباً * إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً * إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً * جَزَاءً وِفَاقاً * إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَاباً * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً * فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً﴾
وجملتا:
﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَاباً * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابا﴾
جملتان تعليليتان، تبينان سببَ ما نزلَ بأهل جهنم من عقاب، وما قُدِّم لهم من شراب.
أَمَّا حديث: «إنَّ أحدكم ليجمعُ خَلْقُهُ في بطن أمه أربعين ليلة، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسلُ إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويُؤمر بأربع كلمات: أجله، وعمله، ورزقه، وشقي أو سعيد»[1].
فالذي يتضحُ لي أن الرواية الرَّاجحة قالت: «ويُؤمر بأربع كلمات» ولم تقلْ: ويكتب، مما يدلُّ على أنَّ الملك ينفخُ الروح، ويرافق الإنسانَ ليكتب تلك الأربع بعد وقوعها لا قبله، كما يظن الكثيرون.
ذلك أنَّ الأوامرَ والنَّواهي في القرآن الكريم، والسُّنَّة الشريفة، لن يكون منها أيَّة فائدة إذا كانت تلك الأربع مفروضة قسراً وجبراً على الإنسان – باستثناء الأجل – ولو كان الأمرُ كذلك لاحتجَّ الكسولُ لكسله، والمتخاذل لتخاذله، والظالم لظلمه، والمفسد لفساده؛ بالقضاء والقدر. ولأُهملت

---

1 (?) رواه البخاري ومسلم.

الفروض والواجبات، وانتشرت المفاسـدُ والموبقـات بحجّة أَن الإنسان ريشـةٌ في مهبِّ الريـاح، قد فُـرِض عليه قولُه وعملُه من الأزل، ولا يملك له تغييراً.

والأدلة القرآنية، والأحاديث الصـحيحة، تـدعمُ وتؤيد أَنَّ ذلك يُكتب على الإِنسان بعد أن يفعله لا قبله، ولعل أهمّها مايلي.

آية آل عمران [181]:

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَـذَابَ الْحَرِيقِ﴾

ولم يقـل: (كتبنـا) – في الماضي – بل قـال ﴿سَـنَكْتُبُ ﴾ – في المستقبل –.

وفي سورة التوبة [120]:

﴿وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾

أي: كتب ذلك بعد ما فعلوه، وهذا ما تقتضيه قواعــدُ اللغة العربية.

وفي سورة يونس [21]:

﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾

بصيغة المضارع.

وفي سورة الأنبياء [94]:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُـوَ مُـؤْمِنٌ فَلا كُفْـرَانَ لِسَـعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾

أي: باستمرار إلى أن يموت.

وفي سورة يس [12]:

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾

وفي سورة الزخرف [19]:

﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلونَ﴾

وفي سورة الزخرف [80]:

﴿أَمْ يَحْسَـبُونَ أَنَّا لا نَسْـمَعُ سِـرَّهُمْ وَنَجْـوَاهُمْ بَلَى وَرُسُـلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾

بصيغة المضارع المفيد للحاضر والمستقبل.

وفي سورة ق [18]:

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾

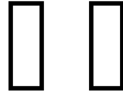
أي: يرافقه ملك يكتبُ عنه كلَّ شيء.

وفي سورة الانفطار [10-12]:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُـونَ ﴾

فهــذه الآيــاتُ الكريمــةُ واضــحةُ الدلالة على أنَّ الملائكة تكتب أقـوال وأفعـال العبـاد بعد وقوعها لا قبلـه، مما يوافق ويؤكِّد عدل الله تعالى المطلق الكامل:

﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِـراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَـداً﴾ [الكهـف: 49]



عِلْمُ الله كاشفٌ لا مُكْرِه

مما لا ريبَ فيه أَنَّ اللـــــهَ يعلمُ الغيب كلــــه، ماضـــــيه، وحاضـره، ومسـتقبله، ما كـان وما يكـون وما سـيكون، ولكن علمه هذا لأفعال، وأقوال، وأعمـال العبـاد كاشـف، لا ضـاغطٌ ولا مكـره، كـالمرآة تكشـفُ ما تلبس أو تعمـل، وليست هي التي أكرهتك على ذلك.

ولو كان عِلْمُ الله ضـاغِطاً أو مكرهاً للعبـاد على قـول أو فعــل، لكــان ذلك ظلمــاً وحــاش لله أن يظلم، وهو أحكمُ الحاكمين، أقام الكون على الحق والعـدل، وأمر عبـادَه بهمـا. وقد رأيت ذلك جلياً في أول هذا البحث.

ولقد ضـلّت فئـةٌ قـديماً وحـديثاً زعمتْ أنَّ اللـهَ لا يعلمُ مسـتقبلَ الغيب إلا بعد حصـوله، ولا يعلم أفعــالَ العبــاد ولا أقوالهم إلا بعد وقوعهـا. يريـدون بـذلك – على حـدِّ زعمهم – أن ينَزّهــوا الله عن الظلم، فنسـبوا إليه الجهـلَ بـالغيب – والعياذ بالله – فضلوا وأضلُّوا.

والنصـوصُ القرآنية الـتي تبطل زعمهم وافـتراءهم كثـيرة، قطعية الدّلالة على علم الله الشـــامل لكل غيب، ومنه غيبُ المستقبل بكلياته وجزيئاته، نختار لكم منها في آية الكرسي:

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ [البقرة: 255]

أي: ما فعلوا قديماً وما سيفعلون في المستقبل.

وقد تكررت هذه الألفاظ في عـدة سـور. وفي أول سـورة الروم:

﴿غُلِبَتِ الــــرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْـــــدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾

فاللهُ يخبرُ عن حرب ستقعُ في المسـتقبل، حـدّد لها بضـعَ ســـنين، أي: من ثلاث إلى تسع ســـنين، وبيَّن أن الــــروم سـيغلبون فيها الفـرس، وقد حصل الأمـرُ كما ذكر سـبحانه، وهذا دليلٌ قاطعٌ على علمه بما سيقع في المستقبل.

وفي سورة المسد:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَـبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيـدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾

يخــبرُ الله تعــالى في هــذه الســورة أنَّ أبا لهب وامرأته سيموتان على الكفر، وقد ماتا عليه؛ مما يدلُّ على علمه بما

سيقع في المستقبل.
وقد أخبر جبريلُ عليه السلام رسولَ الله أنَّ أُبَّي بن خلف سيموت كافراً، وهو الذي جاء بعظم بالٍ من القبر، وضرب به مثلاً وقال للرسول : من يحيي هذه وهي رميم؟ أأنت تزعم أنها تعود إنساناً سوياً؟ قال له : «نعم سيعيدك ويدخلك جهنم»[1]. وقد ماتَ كافراً في أُحُد على يد النبي حين أصرَّ وأقسم أن يقتل محمداً فقال لهم : «خلّوا سبيله إليّ». وبارزه فقتله. وفيه نزلت آية يس [78]:
وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ
وإخبار جبريل عليه السلام أن أبَّي بن خلف سيموتُ كافراً هو وحي بأمر الله تعالى ومنه، وهذا يدلُّ على عِلْم الله بما سيقع في المستقبل.
وفي سورة الفتح [11]:
سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا [الفتح: 11]
وهذا إخبارٌ منه سبحانه وتعالى بما سيقوله المخلَّفون من الأعراب، المتقاعسون عن الجهاد، وقد قالوه بعد ذلك، مما يدلُّ على علم الله تعالى بكل ما سيقع في المستقبل، ولذا انتهت الآية بقوله تعالى:
بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً
وفي سورة الحج [68]:
وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ
وفي الآية إخبارٌ بأنَّ الله على علم بما يعمل وسيعمل الناس جميعاً، فصيغة المضارع تعملون تفيدُ الحاضر والمستقبل.
وفي آخر سورة لقمان [34]:
 إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ
في هذا الآيات إخبارٌ من الله تعالى أن مفاتحَ الغيب في المستقبل بيده، يجهلها الخلق، وهو تعالى بها عليم خبير.
وفي الأنعام [59]:
 وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ
وفي سورة البقرة [235]:
 عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ

---
[1] (?) رواه ابن مردويه.

وفيها إخبار أن الله يعلمُ ما سيقعُ في المستقبل.
وفي سورة المزمل [20]:
﴿ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ ﴾
﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى ﴾
وفيهما إخبار بأن الله عَلِم ويعلَمُ ما سيقعُ في المستقبل.
ذلك لأن الزمانَ مِن خَلْق اللـه، يخضع له المخلوق، وهو الإنسانُ وغيره من المخلوقات، ولا يخضعُ له الخالقُ سبحانه وتعالى، فإن قدرته وعلمه يتجاوزان الزمان الذي هو من خلقه، والخالق لا يخضعُ لما خَلَق.
وقد رأيتَ، وقرأتَ، وسمعتَ الأدلةَ التي ذكرتُها لك من القرآن الكريم، وكلها أدلةٌ منطقيةٌ، وقرائن لفظية، ووقائع تاريخية صادقة، تدلُّ على عِلْم الله المستقبلي بكلِّ شيء، كما يعلمُ الماضي والحاضر:
﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 282]
فَعِلْمُه تعالى يشملُ كلَّ شيء في كلِّ زمان ومكان.
وصيغة ﴿عليم﴾ صفة مشبهة تدلُّ على الثبوت، والدوام، والاستقرار في كل زمان ومكان.
وفي سورة يس [76]:
﴿فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾
بصيغة المضارع، فالله يعلمُ ما نسرُّ وما نعلن في الماضي والحاضر، والمستقبل.
وفي سورة التوبة [78]:
﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾
بصيغة الجمع؛ ليشمل غيب الحاضر، والماضي، والمستقبل، فإذا دخلت ﴿قد﴾ على المضارع، وكان الإخبار عن الله تعالى، فهي حرف تحقيق كما في سورة الحجر [97]:
﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾
وفي سور النحل [103]:
﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾
واللام الداخلة على ﴿قد﴾ موطئة للقسم تؤكد التحقيق.
وفي سورة الأنعام [33]:
﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ﴾
وما أكثر الآيات القرآنية الدَّالة على ما ذكرتُ، وفي هذا القدر كفاية.
أمَّا قوله تعالى في سورة العنكبوت [1 و3]:
﴿ الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا

يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾

فقوله تعالى: ﴿فليعلمن﴾ أي: فليكشفن حقيقةَ وواقعَ الصادقين والمكذبين، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيّ عن بيّنة، ولئلاّ يُخْدَعَ أحدٌ بماكر، أو منافق، أو كافر.

والعلمُ سبيلٌ إلى الكشف والبيان، فأطلق السببَ وأراد الهدف منه، وهو كشفُ واقع المنافقين، وما ينطوون عليه من كذب، ومكر، وخداع. والكشف يحصلُ بتعريضهم لامتحاناتٍ كثيرة في أمور الدين والدنيا، منها: الجهاد، والزكاة، والصبر على المصائب، وترك المعاصي، والمثابرة على الطاعات، فيصعبُ على المنافقين إخفاءُ ما في نفوسهم من كفر، وهوىً، وبُخل، وجبن، وجزع، وكسل، وتخاذل، فتنكشف حقيقتُهم للناس. ولكَ أن تُفَسِّرَ ﴿فليعلمن﴾ بالجزاء والعقاب أيضاً؛ لأنَّ العلمَ بذنب المذنب سبيلٌ إلى عقابه على ما اقترف، ولعل الكشفَ أولى وأوضح فهو من التنبيه بالسبب على المسبّب.

ولو تابع القارئ سورة العنكبوت، فوصل إلى الآيات [10-12]:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ *﴾

أي: أو ليس اللهُ عالماً بما تنطوي عليه نفوسُ الناس – ومنهم المنافقون – وهو استفهامٌ تقريري جوابه: (بلى).

ثم أقسم أن يكشفَ واقعَ المنافقين والمؤمنين فقال:

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾

فإذا كان معنى ﴿وليعلمن﴾ لا يتناول الكشفَ، وإظهار واقع الأمر، لم يكن لذكر ﴿وليعلمن﴾ أيَّةُ فائدة؛ لأنها بتقرير أنَّ اللهَ عليم بما في صُدور المؤمنين والمنافقين:

﴿ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾

فلا بُدَّ أن تفسّر: ﴿وليعلمن﴾ بـ(وليكشفنَّ – وليظهرنَّ) واقعَ الجميع من: صِدْق المؤمن، وكذب المنافق؛ ليستقيم معنى الآية، فتأمل.

وتتمةُ الآيات تُظْهِرُ نوعاً من هذا الكشف لأساليبهم في الكذب، والخداع، والاستحالة، والإغراء؛ ليوقعوا المؤمنين في حبائلهم فيضلّوهم؛ ليكون المؤمنين على حذر، ويقظة، فلا يَنْزَلقوا إلى ضلال:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ*13﴾

فَعِلْمُ الله قديم كاشفٌ لا مُكْرِه.

وقوله تعالى في سورة الحاقة [49]:

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ*﴾

وفي سورة ق [16]:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ*﴾

دليلٌ قاطعٌ على ما ذكرنا من عِلْم الله القديم السابق.

وقِسْ على هذه الآيات مثيلاتها من كتاب الله الكريم، كما في سورة البقرة [143]:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ ﴾

وسورة الكهف [12]:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً*﴾

وسورة محمد [31]:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾

ففعل ﴿نعلم﴾ في هذه الآيات ومثيلاتها معناه: (نكشف ونظهر) فتأملْ تُفْلِحْ، وتكنْ من المهتدين.

ولعلَّ الحديث الصحيح: «إنَّ الرجلَ ليعملُ بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس حتى ما يكون بينه وبينها إلاَّ ذراع، فيسبق عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»[1] يُؤيِّد ما ذهبنا إليه من معنى الكشف والإظهار لما في نفوس المنافقين. فقوله: «فيما يبدو للناس» واضحُ الدّلالة على أنَّ الرجلَ المذكور في هذا الحديث منافق، يتصنَّع خلاف حقيقته، ويتظاهَرُ بالتقوى، وهو من أهل الفجور في السِّر، فيبدو للناس أنه من الصَّالحين، وهو غيرُ صالح، فلا بُدَّ أن يكشفَ اللهُ أمره، ويُظهِرَ كذبه ونفاقه للناس، فقد كتب، وفرض، وأمر أن يتَّضح نفاق المنافقين، وينكشف؛ لئلا يُخدع بهم أهلُ الإيمان والتقوى. فيتصرَّف المنافقون بما يكشف ما في نفوسهم من نفاق، وكفر، وكذب، وفي ذلك إرغامٌ للباطل، ونَصْرٌ للحقِّ.

وللعبد فرصٌ لدفع البلاء والعقاب عنه:

أ- فإذا استحقَّ عقاباً في الدنيا قبل الآخرة فتاب، وأناب،

---

1 (?) رواه مسلم.

وعمل صالحاً، ودعا، وألحَّ في الدعاء، كشف عنه البلاء، ورفع العقاب؛ لما ورد في الحديث الشريف: «لا يردُّ القضاءَ إلا الدُّعاء»[1].

«صنائعُ المعروف تقي مصارعَ السوء، وصدقةُ السِّرِّ تطفئُ غضبَ الرب، وصلةُ الرَّحم تزيدُ في العمر»[2].

ب- وإذا استحقَّ العبدُ خيراً ورزقاً، فعصى وغوى، قبل وصول الرزق إليه، فقد يُحرم ذلك الرزق، ويُمنع عنه.

وفي الحديث الشريف: «إنَّ العبدَ ليحرمُ الرزق بالذنب يصيبه»[3].

وإذا حملنا قولَه تعالى:

﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ [الرعد: 39]

على العموم، كما رأى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – ولم نخصَّصها بالمعجزات، علمنا أنَّ الثوابَ والعقابَ ليسا مقطوعاً بهما لا يتغيران، بل تابعان لتصرُّف العبد في قوله وعمله، وهو حرُّ التَّصرف فيهما كما رأيت، فإن أحسنَ أحسن إليه، وإن أساء عُوقب. قال تعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية: 15]

كما قال:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: 11]

وإذا عرفنا أنَّ (ما) من ألفاظ العموم، أدركنا صِدْقَ المعنى الذي ذكرناه من قبل.

جـ- وإذا ضلَّ العبدُ، فإنَّ اللهَ تعالى لا يرضى له الضلال، وقد يريده، وقد مرَّ معك الفرقُ بين الإرادة والرضا، ولذا فإنَّ الله تعالى يضايقُ الضالَّ رحمةً به؛ ليعود إلى الهُدى الذي فُطر عليه.

ففي سورة طه [124-127]:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى *﴾

وفي سورة الأنعام [125]:

---

[1] (?) رواه الترمذي والحاكم.

[2] (?) رواه الطبراني في الأوسط.

[3] (?) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه.

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾

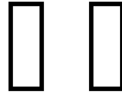
وفي الحديث الشريف: «استقيموا ولن تحصُوا»[1] أي: إذا استقمتم فلن تستطيعوا أن تحصوا الخيرَ الذي سيأتيكم، لاستقامتكم.

فَقُلْ للذين ضلّوا، وضاقت بهم سبل الحياة والرزق، كما ضاقت بهم صدورهم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: 70-71]

---

1 (?) رواه أحمد ومالك وابن ماجه.



ليس للشيطان سلطان على المتقين

أذكر أنَّ أحـدَ الطُّلاب سـألني عن تفسـير قوله تعـالى في سورة هود [119]:

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

فقلت لـه: لا بُـدَّ من تلاوة جميع الآيـات الـتي تتحـدَّثُ في هذا الشـأن؛ لنصـلَ إلى الفيصل في القضـية، فما أُجْمِـلَ في مكانٍ فُصِّل في غيره. وخيرُ تفسير للقـرآن الكـريم أن نرجـعَ إليه نفسه - والله أعلم بمراده - ولا يجوز لمسلمٍ أن يكــونَ جــاهلاً بكتــاب اللــه، ولاســيما إن كــان من طلاَّب العلــوم الشرعية. والربطُ بين الآيات القرآنية ذات الموضوع الواحِدِ نعٌ من التــدبُّر والتفكــر. ولو فعلتَ يا بُـنيَّ لوصــلتَ إلى الــرأي السَّـديد الـذي يـدُّلك على عدالة الله الشـاملة، الكاملـة، وأنَّ دخولَ جهنم مصيرُ الكافرين والمشركين والضالين والمنـافقين والفاسـقين؛ الـذين فعَلـوا ذلك بمحض إرادتهم دون قسر ولا إكراه، والله تعالى يقول في سورة النساء [147]:

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ﴾

فتعالَ معي نتدبَّر آيات الله فيما سألت عنه:

يقول اللهُ تعالى في سورة الأعراف [156-158]:

﴿ قَالَ عَـذَابِي أُصِـيبُ بِـهِ مَنْ أَشَـاءُ وَرَحْمَتِي وَسِـعَتْ كُـلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُـونَ الزَّكَـاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُــونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُــونَ الرَّسُــولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَـهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَـرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَـائِثَ وَيَضَـعُ عَنْهُمْ إِصْــرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَـانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُــوا بِــهِ وَعَــزَّرُوهُ وَنَصَــرُوهُ وَاتَّبَعُــوا النُّورَ الَّذِي أُنْـزِلَ مَعَـهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾

فمحمد ﷺ رسولٌ للبشرية جمعـاء، ولكل إنسـان، فلا نجـاةَ لأهل الكتب السماوية الأخـرى إلا بالإيمـان بـه، والتصـديق بما جاء به. ولقد جاءنا بالحسنيين: خيري الدنيا والآخرة:

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُـوحَى﴾ [النجم: 3-4].

فمن آمنَ فقد اهتدى، ومَن كفر أصابه العذاب.

وسورة الأعراف نفسُـها تُجيب عن سـؤالك يا بـني، وتُـبيِّن

الذين سينالهم ذلك العذاب، ففي الآية [179] يقول تعالى:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ179 ﴾

فقد استحقّوا دخولَ جهنم لإهمالهم طاقاتهم، وعقولهم، وحواسهم، إذ لو أحسنوا استخدامها لوصلتْ بهم إلى أنَّ اللهَ حقٌّ، وأنَّ ما أَوْحَى به إلى رسله حقٌّ.

وتقرأ في سورة ق [24-37]:

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ * يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ * وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾

فالنَّارُ لمن ضلَّ، وغوى، وأشركَ، وكفر، ومَنَع الخير، واعتدى. والجنة للمتقين: لمن وعى، واهتدى وخشي الرحمن بالغيب، وكان ذا قلب سَليم منيب، والعاقل من سمع الحقَّ فاتَّعظ، وادَّكر، ووعظته العِبَرُ.

وفي سورة السجدة [13]:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

أي: لو شاء اللهُ إكراهَ عباده على شيء لأكرههم على الإيمان والهدى، ولكنه فَطَرهم على الخير، وأعطاهم حريَّة التصرُّف، وكتب الجنة لمن آمن، واهتدى واستقام، وعمل صالحاً. وكتب النارَ لمن عرفَ الحقَّ فتجاهله، ونسيه أو تناساه، فَيُهْمَل يومَ الدِّين، ولا يُرْحَم بسبب كفره وضلاله.

وفي سورة التحريم [7]:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

وفي سورة الأعراف نفسها – موضوع تساؤل الطالب – تقريعٌ من الله تعالى للشيطان، وردٌّ عليه بجواب مفحم، واضح، مُسكت، ففي الآية [18]:

﴿قَالَ اخْـرُجْ مِنْهَا مَـذْءُوماً مَـدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَـكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ*﴾
فأهـلُ النـار الـذين سـتُملأ بهم جهنَّم هم أتبـاعُ الشـيطان، وطواغيت الجنّ والإنس.
وفي سورة الإسراء [63]:
﴿قَـالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَـكَ مِنْهُمْ فَـإِنَّ جَهَنَّمَ جَـزَاؤُكُمْ جَـزَاءً مَوْفُوراً*﴾
وفي سورة ص [82-85]:
﴿قَـــالَ فَبِعِزَّتِــــكَ لَأُغْـــوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَـــادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِـينَ * قَـالَ فَـالْحَقُّ وَالْحَـقَّ أَقُـولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْـكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ*﴾
وفي سورة الحجر [39-43]:
﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُـلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ*﴾
فالشـــيطانُ يقـــرُّ إذاً بأنه عـــاجزٌ عن التـــأثير بعبـــاد الله المخلَصـــين، وعلى رأســـهم الرسل والأنبيـــاء الكـــرام، ومنهم يوسف عليه السلام حيث وصفه الله تعالى في سورة يوسف نفسها بأنه من المخلصين، فقال سبحانه:
﴿وَلَقَـدْ هَمَّتْ بِـهِ وَهَمَّ بِهَا لَـوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَـانَ رَبِّهِ كَـذَلِكَ لِنَصْـرِفَ عَنْـهُ السُّـوءَ وَالْفَحْشَـاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِـينَ﴾ [يوسف: 24].
فالرسل والأنبيـاء قـدوةٌ حَسَـنةٌ، وأسـوةٌ صـالحةٌ للنـاس، اصـطفاهم اللـهُ من خـيرةِ خَلْقـه، وهم معصـومون من كُـلِّ معصية، أو سوء، فحذارِ حـذارِ من الإسـرائيليات، ومن كل ما دُسّ على يوسف وغيره، مما لا يليق بعامة الناس فضـلاً عن الأنبياء والرسل الكرام.
ولقد ذكرتُ لك من قبل أن سيدنا عليّاً - كـرم الله وجهه - قـال: «من قـذف غـيره» أي: اتهمه بالزنا «ولم يـأت بالبينة جلدته ثمانين جلدة، ومن قذف أو اتّهم رسـولاً أو نبيـاً جلدته مئة وسـتين جلـدة» لأنه كـاذبٌ ومُفْتَـرٍ، وقد اتهم القـدوة المعصومين، فاستحق مضاعفة العقاب.
ولا يصـلحُ حـالُ أمـةٍ، ولا يصـلح حـالُ شـبابها، وشـاباتها، ورجالهـا، ونسـائها، إلاَّ حين يتخـذون هـؤلاء الرُّسل والأنبيـاء المعصومين أسوةً وقدوةً، وأن يـروا فيهم الكمـال، والجمـال، فإذا أساؤوا بهم الظَّنَّ انزلقوا إلى مهاوي المعصية والضـلالة، فضلّوا، واستحقوا شديد العقاب.

وأذكرُ أنَّ أحدَ الطُّلاب سألني أيضاً يقول: في سورة فاطر [8]:
﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾
فإذا كان الله تعالى قد زيَّن لهم المنكرات ليفعلوها، وأخبر أنَّه يضل من يشاء، فما ذنبهم إن فسدوا أو ضلّوا؟
فقلت له: على رسلك يا بني! فالآية تحتاجُ إلى تفسير دقيق وعميق، نرجع في ذلك إلى القرآن الكريم نفسه، مستخدمين اللغة العربية لتوضيح ما التبسَ فهمُه عليك، وذلك يتطلَّبُ منا البحثَ في ثلاثة أمور نتساءل فيها:
1- أين الخبرُ في الآية؟
والجواب تدلُّنا عليه سورة محمد [14]:
﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾
والخبر هنا (الكاف) في (كمن) أي: هل المهتدي مثل الضال؟! والخبرُ في آية فاطر محذوف تقديره: (كمن كان على بينة من ربه) أي: هل الضال مثل المهتدي؟. والكاف اسم بمعنى مثل.
وفي سورة الملك [22] ذُكر الخبر صريحاً واضحاً:
﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾
فكلمة (أهدى) في الآية هي الخبر.
ويساعدنا على فَهْم المحذوف في سورة فاطر آية سورة القلم [35-36]:
﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ*﴾
إلا أنَّ الكاف – هنا – هي المفعول الثاني لفعل نجعل، أي: أنسوِّي بين الطيب والخبيث؟ بين المحق والمبطل؟ فنجعل المسلمَ مثل المجرم، ما لكم كيف تقبلون بهذه التسوية الجائرة الباطلة؟! واللهُ يقولُ الحقَّ، ويحكمُ بالعدل.
2- من المزيِّن في الآية؟
تجيبنا عن ذلك آية سورة النحل [63]:
﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾
وآية سورة النمل [24]:
﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾
فالشيطانُ هو الذي يُزيِّن السُّوءَ لأتباعه، فيزينونَ السوءَ للناس. ففي سورة الأنعام [137]:

﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾.

و﴿شركاؤهم﴾ هي فاعل ﴿زَيّن﴾ وهم أعوانُ الشيطان. ذلك أن الله يُزَيِّن للخير لا للشر، ففي سورة الحجرات [7]:

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾

وأما آية سورة آل عمران [14]:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾

فهو تزيينٌ للخير ولإعمار الكون بأناسٍ يُوحِّدون الله تعالى، ويفعلون الواجبات، ويؤدُّون الحقوقَ، وينشرون الفضائلَ، ويُتَمِّمون مكارم الأخلاق، لهم ذرية صالحة، وبنون أبرار، يتابعون السيرَ على طريق الإيمان، والحق، والفضيلة، مستخدمين وسائل العيش من ذهب، أو فضة، وخيل، وأنعام، وما تنبت الأرضُ من نباتٍ، وشجر، وثمر، فهو متاعُ هذه الحياة الدنيا، فمن تزوَّج كما أمر الله، واستخدم نِعَمَهُ في الوجوه المشروعة، فقد فاز بما عند الله من حُسْن المآب.

وإذا تلوتَ من سورة آل عمران الآيات التي بَعْد هذه الآية، رأيتَ دليلاً واضحاً على هذا.

وفي الحديث الشريف: «وفي بُضْع أحدكم صدقةٌ» قالوا: يا رسول الله! أيأتي أحدُنا شهوته ويكتب له بذلك أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أليس عليه في ذلك وزر؟» قالوا: بلى. قال: «كذلك إذا وضعها في حلال، فإنَّ له بذلك أجراً»[1].

وأما قولُه تعالى في سورة النمل [4]:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾

فهو مجازٌ على حدِّ قول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: 5]

أي: عندما أصرّوا على الزَّيغ والضلال، وقد عرفوا الحقَّ والهدى، وعندما اتَّبَعوا خطوات الشَّيطان، الذي زيَّن لهم أعمالهم الفاسدة، وأعرضُوا عن صوت الحق وضيائه، سمحنا بزيغهم وتأثير الشيطان عليهم؛ لأنهم اتَّبعوه راضين، فهم الغاوون، فأردنا لهم ما أصرّوا عليه من الزيغ، والفساد؛ لئلا يقعَ شيءٌ إلا بإرادتنا:

---

[1] (?) رواه أحمد ومسلم وأبو داود.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: 29]

وآية الصف [5]:

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

تدلُّ على هذا بوضوحٍ، ويدعمها قولُه تعالى في سورة آل عمران [178]:

﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾

وفي سورة مريم [75-76]:

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً * وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً﴾

3- ما معنى قوله تعالى:

﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: 8]

الجوابُ يقودُنا إلى البحث في الضمير، وإلى أين يعود والقاعدةُ النحوية تقولُ: يعودُ الضمير إلى أقرب مذكور قبله، ما لم يصرفه صارفٌ إلى غيره بقرينة.

فقولُه تعالى في سورة يوسف [23]:

﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[1].

يعود الضميرُ في ﴿إنه ربي﴾ على الله تعالى، وهو أقربُ مذكور في الآية، ولا يعود على زوجها إذ لا قرينة تصرفه إلى زوجها. ثم إنَّ سيِّدَنا يوسف عفَّ عنها خَوفاً من الله تعالى، لا مراعاةً لشأن زوجها الذي أحسن إليه، فهو عفيفٌ، شريف، معصومٌ، تقي، نقي، لا يمكن بل يستحيلُ أن يعصيَ الله، أو يفعل منكراً، وهو سيعفُّ عنها ولو أساء إليه زوجها. ولو أعدنا الضمير على زوجها لظنَّ السَّامعُ، أو القارئ أن يوسفَ عفَّ عنها لأنَّ زوجَها أحسنَ إليه، ولو لم يحسنْ إليه لأساء إليها، وهذا ما لا يجوزُ أن يخطر في بال أحد. واليهود هم الذين يسيئون لسمعة الأنبياء والرسل، والتوراةُ محشوَّةٌ بالافتراء والتزييف على الأنبياء والرسل، واتِّهامهم بما لا يليقُ. فتنبه.

والنبي حيث يقول: ﴿إنه ربي﴾ فهو لا يقرُّ بالربوبية إلا لله تعالى وحده قبل البعثة وبعدها، فإذا أدركنا هذا توصَّلنا إلى أن الضميرَ في قوله تعالى: ﴿يضل﴾ و﴿يهدي﴾ يعود إلى ﴿من

---

[1] (?) ارجع إلى كتابي: «نظرات في كتاب الله تعالى» تجدْ فيه بحثاً مقنعاً مرضياً عن سيدنا يوسف عليه السلام وعفَّته.

 وهو أقربُ المذكور، فيصير المعنى: يضل الله من يشاء الضلالة ويهدي من يشاء الهداية.
أي: يضلُّ اللهُ فلاناً إن شاء الضَّلالة، ويهدي فلاناً إن شاء الهداية، وليست هناك قرينة تصرفُ الضمير إلى البعيد. والعدالةُ الإلهية تقتضي عودَ الضمير هنا على القريب، وهو من.
وإذا أردت أن تعرفَ مثلاً على عود الضمير على البعيد لقرينة، فإليك آية سورة التوبة [24]:
قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ
فالضميرُ في قوله تعالى: في سبيله يعودُ حتماً إلى الله تعالى لا إلى رسوله، أي إلى المذكور البعيد لا القريب لقرينة عقلية، وهي: أن الله تعالى نصَّ في قرآنه الكريم كما ذكر رسوله في أحاديثه الشريفة الصحيحة أن الجهادَ لا يكونُ، ولا يُقبل، ولا يجوزُ، ولا يُثابُ عليه صاحبُه، إلا إذا كان في سبيل الله وحده لا شريك له.
وفي القرآن الكريم آياتٌ كثيرةٌ تُعيد الضميرَ في الضلال والإِضلال على الإنسان نفسه، أو يرد في الآية هو الفاعل للضلال بإرادته، أو تبين أن ما نزل، وسينزل به، من عقاب فمرجعه ضلاله واختياره الشر دون الخير والباطل دون الحق، والضلالة دون الهدى، أو تبين أنَّ الشيطانَ هو الذي قاد أهلَ الضَّلالة إلى كُلِّ شر وفساد حين رأى عندهم رغبة في ذلك، وبُعْداً عن الهدى وسبيله، أو ترد ذلك إلى أعوان الشيطان. من ذلك قوله تعالى في سورة النساء [60]:
وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً
وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً[116]
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[176]
أي: لئلا تضلوا.
وفي سورة الأعراف [38]:
رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ [الأعراف: 38]
ولو تابعتَ القراءةَ لرأيتَ في أواخر الآيات بعد هذه الآية:
فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ [الأعراف: 39]
وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ [الأعراف: 40]

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: 41]
وفي سورة الإسراء [15]:
﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾
وفي سورة الكهف [103-106]:
﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً﴾
وفي سورة الحج [3-4]:
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾
وفي سورة الشعراء [99] على لسان الكفار يوم الدين:
﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾
وفي سورة الأحزاب [66-68] في الحديث عن أهل جهنم الكافرين:
﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾
وفي سورة ق [27-29]:
﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾
على أنَّ هناك آيات يعودُ الضميرُ فيها على الله تعالى في يضل، أو يذكر لفظ الجلالة فاعلاً في الآية. كما في سورة إبراهيم [27]:
﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: 27]
وفي سورة البقرة [26-27]:
﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾
وفي سورة محمد [1]:
﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾
وفي سورة مريم [75-76]:
﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً﴾

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً﴾
وفي سورة غافر [34]:
﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴾
فواضحٌ أنَّ الله يُضِـلُّ مَنْ أَصَـرَّ على الضـلالة، وسـعى لها سعيها، وأعرض عن الهـدى وقد ظهر لـه، واتضـح، فـأذن الله بضـلاله لإصـرار الضال على ذلـك. وقد رأيت في آخر سـورة الفاتحة ﴿ولا الضــالين﴾ ولم يقــل: ولا الــذين أضــللتهم، فهم ضــلّوا وأضــلّوا، فــأراد الله ذلــك، إذ لا يقع شــيء إلا بإذنه وإرادتــــه، وهو سُــــبحانه حين يُريد ذلك لا يرضى عن الكفر وأهلـه، ولا يحبُّ لهم ذلـك، وإنما يرضى عن الإيمـان وأهلـه، وقد فطر الناسَ عليه:
﴿رَضِــيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُــوا عَنْــهُ ذَلِــكَ لِمَنْ خَشِــيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: 8]
وقد مــرَّ معك من قبل أن ذلك كلّه تفسِّــره آية ســـورة الصف [5]:
﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾
(زاغوا) هو فعل الشرط: (لما) و(أزاغ) جواب الشــرط؛ وهو شرط غير جازم، فهم بدؤوا الزيغ مصرِّين عليه، ساعين إليه، راغبين فيه، فسمح لهم به:
﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾
وفي سورة النساء [115]:
﴿وَمَنْ يُشَـاقِقِ الرَّسُـولَ مِنْ بَعْـدِ مَا تَبَيَّنَ لَـهُ الْهُـدَى وَيَتَّبِـعْ غَيْـرَ سَـبِيلِ الْمُـؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَـوَلَّى وَنُصْـلِهِ جَهَنَّمَ وَسَـاءَتْ مَصِيراً﴾
وأنت تـرى في الآية إشـارةً واضـحة إلى حرِّية الفـرد في التصرُّف ولو من بعد ما تبيَّن له الهدى.
وفي سورة الرعد [27]:
﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾
فبابُ الهداية مفتوح لمن أرادَ فتاب، وأناب، واهتدى، والله تعـالى يقـرُّ العبد على مـراده، ولاسـيما إن أصـرَّ العبـدُ على ذلـك، فيضـلُّ من يشـاءُ الضـلالةَ، ولا يرضى عن ضـلاله، ولا يعينه عليه، بل يضايقه ليعود إلى جادة الصواب:
﴿وَلَنُـذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَـذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَـذَابِ الْأَكْبَـرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: 21]
ويهـــدي من يشـــاء الهداية ويرضى عن هدايته ويعينه في ذلك.
وإليك آيات كثيرة تدلُّ بوضوح على هذا:

ففي سورة محمد [17]:
﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾
وفي سورة مريم [7]:
﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً ﴾
وفي سورة البقرة [213]:
﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾
وفي سورة الرعد [27]:
﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾
وفي سورة الشورى [13]:
﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾
وآخر آية من سورة العنكبوت تقول:
﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾
وفي سورة القصص [56]:
﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾
وفي سورة التغابن [11]:
﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾
وفي سورة المائدة [51]:
﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾
[67]:
﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾
[108]:
﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾
وفي سورة غافر [28]:
﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾
وفي سورة الزمر [3]:
﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾
ومَن رَفَضَ هُدى الله فلن يهتدي، ولن تجد له ولياً مرشداً؛ لأنَّ الهدى الحق هو هُدى الله تعالى:
﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ﴾ [البقرة: 120]
وفي سورة الإسراء [15]:
﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾
وفي سورة آل عمران [73]:
﴿ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ ﴾
وفي سورة الليل [12]:
﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾
وأما قوله تعالى:

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256]

فلا يعني تعطيلَ الجهاد في سبيل الله كما حسِب بعضُ الدارسين لكتاب الله الكريم، وإنما يعني أن إدخالَ الإيمان في القلوب وتمكينه فيها هو من عمل الله تعالى وفضله، حين يرى صدق العبد، وإخلاصه، وسلامة نيته في الإقبال على الهدى والإيمان. قال تعالى:

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ ﴾ [النمل: 81]

وفي سورة القصص [56]:

﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾

كما تعني أنَّ الإكراهَ في العقيدة لا يُفيد التابعَ ولا المتبوع شيئاً. وأما قولُه تعالى في سورة الشورى [52]:

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

أي: إنك لتدلُّ عليه، وتقود إليه، فأنت مبلِّغ مُذكِّر، لا مُسيطرٌ، والله أعلم بالسَّرائر:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: 21-22]

وقد ذكرتُ في كتابي: (نظرات في كتاب الله تعالى) بحثاً ملخّصاً عن معاني الهداية في القرآنِ الكريم، فارجعْ إليه إن شئت.

فإذا استغنى الإنسانُ وأعرضَ عن هُدى الله فقد طغى، وغوى، وخاب، وخسر. ففي سورة العلق [6-7]:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾

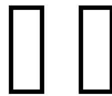
وفي سورة طه [123-127]:

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾

والعمى في الآية هو عمى البصيرة، لا عمى البصر:

﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]

فتأمَّل.



إزالةُ اللّبس في فهم بَعْض الآيات القرآنية الكريمة

والأحاديث النبوية الشريفة

أولاً: قوله تعالى:
﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ [الإسراء: 16]
فهذه الآيةُ: لابُدَّ لفهمها من معرفة المفعول الثاني لأمرنا الذي يأتي غير صريح، أي: يأتي بصيغة الجار والمجرور.
تقول: أمرت ولدي بالدراسة، أمرته بالتقوى، ولقد فسرت هذا المفعول الثاني المحذوف عدة آيات أخرى منها:
﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: 90]
فيصير معنى الآية: إذا أردنا أن نهلك أمةً طغت، وبغت، أمرنا الكبراء، والمترفين، وذوي التأثير على غيرهم بالتقوى والاستقامة، بالعدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربى، بالرجوع إلى الحق، فإن فعلوا نجوا، وإلا فقد حقَّ عليهم القولُ، والعقاب العادل، بعد صبر عليهم طويل، فدمرناهم تدميراً.
والحذفُ في القرآن الكريم كثيرٌ، وهو من الإعجاز، فارجع إلى كتابي (نظرات في كتاب الله تعالى) تجدْ في ذلك بياناً.
ثانياً: قوله تعالى:
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج: 52]
وفَهْمِ هذه الآية يتوقَّفُ أيضاً على حذف المفعول به، ومعناها: ما من رسول ولا نبي قبلك إلا لاقى من قومه المعاندين الخصومة، والعداوة، والمكر، والكيد. فإذا تمنى لقومه: الخير، والإيمان، والإسلام، والهداية، والسير في طريق الحق، ألقى الشيطانُ في طريق تلك الأماني تحقيقها: العقبات، والسدود، والمعوقات، والشبهات، والافتراء، فينسخُ اللهُ ما ألقى الشيطانُ، ويحكم الله آياته، وينصر الحق على يد أنبيائه ورسله، والله عليم حكيم.
ثالثاً: قوله تعالى:
﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾ [الكهف: 29]
وفَهْمُ هذه الآية يتوقَّفُ على معرفة علم البلاغة والبيان.
فاللام في قوله تعالى ﴿فليؤمن﴾ هي لام الأمر، واللهُ يأمرُ

بالإيمان، ويرضى عن أهله.

واللام في قوله تعـــالى: فليكفر هي لام الأمــــر، والله لا يأمرُ بالكفر، ولا يرضى عن أهلـه، ولكن هـذا الأمـرَ خـرج عن معناه الأصلي إلى التهديد، كما يخـرج إلى معـان أخـرى. ودليل التهديد هنا تتمة الآية:

إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً

وليس في الآية تخيــيرٌ كما ظنَّ بعضُ مَن كتب فيهــا؛ لأن أداة التخيير في الأصل هي (أو) لا الواو، ثم إنَّ التخييرَ يكـونُ بين أمرين كلاهما حسن، فإن لم يتيسر أحدُهما فعلت الثاني، ولا يعقل أن يخيّرنا الله بين الإيمـان والكفـر، فالإيمـان حـقٌّ، وخير، والكفر باطل، وشرّ.

وإنما دعا للمســاواة، والعــدل، والفضــائل، وقــال: هــذا هو الحق الذي ارتضـاه اللـهُ لعبـاده. فمن آمنَ باللـه، وسـار على النَّهج الـذي ارتضـاه، فقد نجـا، ومن رفض ذلـك، وكفـر، فقد هلك، والنار مثواه، والمهل الذي يشوي الوجوه شــرابه، فالله قد أمر في الآية بالإيمــان، وهــدَّد من يكفر بشــديد العــذاب، وأليم العقاب.

ولذا فلا يجوزُ لأحـدٍ أن يفسِّــر كتـابَ الله تعـالى وأحـاديث رسوله إلا بعد أن يطَّلع على جميع العلوم الشرعية ويتقنها ومنهــا؛ اللغة العربيــة: نحوهــا، وصــرفها، وبلاغتهــا، وفقههــا، وأساليب العــرب في كلامهم، فـإن جهل ذلك أو تجاهله جاءنا بالطامّات، والمضـحكات، والضـلالات، كما فعل الكثـير ممن لا بـاعَ لهم في فَهْم اللغة العربيـة، والعلـوم الشـرعية - هـداهم الله، وردّهم إلى جادة الصواب قبل أن يموتـوا؛ فيصـبحوا من الخاسرين النادمين -.

رابعـاً: والحـديث الشـريف: «اعملُو فكُـلٌّ مُيَسَّــر لما خُلِـقَ له»[1]. يعني أن العبدَ يجدُ التيسـيرَ حين يسـيرُ في طريـقٍ ما فطر عليه من حبّ الإيمــــان، وكُــــرْه الكفـــــر، والفســــوق، والعصــيان. يجد التيسـيرَ إذا آمن، واتقى، وأعطى من مالــه، وجهــده، وخبرتــه، وجاهــه، وعلمه كـلَّ من يحتـاجُ إلى ذلـك، وصدَّق بالحق وتمثله في حياته.

ففي سورة الليل [5-7]:

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَــدَّقَ بِالْحُسْــنَى * فَسَنُيَسِّــرُهُ لِلْيُسْرَى

فــإن فَعَـلَ عكسَ ذلـك، فإنه واجد ضــيقاً وعســراً، وفي سورة الليل [8-10]:

---

[1] (?) رواه الطبراني.

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾

ولا شك أن أعمال، وأفعال، وأقوال العبد محصيّة عليه، يجدُ أثرَها في الدنيا من خير أو شر، وثوابها أو عقابها في الآخرة:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 8]

وفي الحديث القدسي الشريف: «يا عبادي! إنما هي أعمالُكم أحصيها عليكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمدِ الله، ومن وَجَدَ غير ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه»[1].

ولذا فقد كان بعضُ الصالحين يقول: «إني لأعصي الله فأجد عقوبتي في جموح دابتي، وخُلُق زوجتي وولدي».

ومن استقام كما أمر الله تعالى، فإنَّ الخيرَ الذي سيجده لن يستطيعَ إحصاءه لكثرته في الدنيا والآخرة، ولعلّ هذا معنى الحديث الشريف: «استقيموا ولن تحصوا»[2].

وإنما دعاني لِشَرْح المراد من حديث: «اعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له» ما أسمعه من عامَّة الناسِ الجاهلين حقيقة القضاء والقدر، حيث يذكرون الحديث، ويستشهدون به حين يرون عاصياً يكتسب من فعل حرام، أو يفعل المعاصي والموبقات، فاللهُ خلَقَ الخَلْقَ ليعبدوه لا ليعصوه، وأمرهم بالطاعة، ونهاهم عن المعصية، وصدق الله العظيم:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]

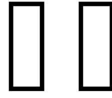
وما أسوأ الذين يلتمسون للعاصي أو لأنفسهم - إن عصوا - العذر، ويستشهدون لذلك بآية، أو حديث، لا يعرفون معناهما، فيغرون الناس بالمعاصي، ويظلمون الحقَّ، ويفسدون المجتمع، فليتقوا الله، وليقولوا قولاً سديداً.

فلنعلم أنَّ المرأة إذا عملت في ساحة ما خُلقت له؛ كأم صالحة، أو زوجة مخلصة كريمة، أو طبيبة، أو ممرضة، أو خياطة، أو معلمة للنساء، أو مربية للأطفال، وجدت هي وقومها التيسير والهناء والتوفيق، فإذا انطلقت من حدود الشرع والفضيلة، وآثرت الهوى على الهدى، وجدت هي وقومها الراضون عن ذلك كلَّ تعسير وشقاء، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

---

[1] (?) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه.

[2] (?) رواه أحمد ومالك وابن ماجه.



السُّنَن الكونية والسُّنَن الاجتماعية

قال تعالى في سورة فاطر [43]:

﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾

والسُّنَّةُ – هنا – تعني القانون الإلهي المطرد، الثابت، الذي لا يتخلف إلا لحكمة إلهية بالغة كالمعجزة، فقد يتخلف قانون مادي تأييداً لرسول أو نبي، أو حماية له، كما حمى الله إبراهيم عليه السلام من كيد وأذى المشركين، فقال للنار التي أضرموها:

﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: 69]

فأذنت لربها وحقَّت، فكانت كما أمرها برداً وسلاماً، فلم يُصَب إبراهيمُ بأذى، وخرج منها سالماً.

والسننُ الاجتماعية لا تتخلف أبداً، وحاجةُ المسلمين إلى فَهْم هذه السنن بنوعيها: الكوني والاجتماعي – وهي النواميس المادية والمعنوية – حاجة ماسة، ولاسيما في هذا القرن، قرن العلم، والمعارف المادية والاجتماعية الجديدة.

قوله تعالى في سورة يس [37-40]:

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

وأمثلة السنن الاجتماعية في القرآن الكريم كثيرة لعل أبرزها قوله تعالى:

1- في سورة البقرة [229]:

﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

2- وفي سورة النساء [123]:

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً﴾

3- وفي سورة يونس [81-82]:

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾

4- وفي سورة يوسف [90]:

﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾
5- وفي سورة الحجر [21]:
﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾
وإذا كان النكرة في سياق النفي تعم، فهذه الآية تَشملُ السُّنَنَ الكونية والاجتماعية. و(إن) فيها بمعنى (ما) النافية.
6- وفي سورة مريم [59]:
﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾
7- وفي سورة النور [19]:
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾
8- وفي سورة فاطر [43]:
﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾
9- وفي سورة محمد [1] ﴿﴾:
﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾
10- في سورة الطلاق [1]:
﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾
11- وفي سورة الشمس [9-10]:
﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾
12- وفي سورة الليل [5-10]:
﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾
وعلى كل مسلم أن يوقنَ أن ليس هناك فوضى في تلك السنن، بل هي سننٌ ثابتة قائمة، تأخذ مجراها في حياة الناس جميعاً، فما أصاب الأمم السابقة الهالكة فسيصيبنا إن سلكنا سبيلها نفسه. ففي غزوة أحد لما خالف الرماة أمر النبي ﷺ تحوَّل النصرُ إلى خسارة. ولما تساءلوا: لم خسرنا؟ جاء الجواب الإلهي في آل عمران:
1- [128]:
﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾
2- [152]:
﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾
3- [165]:
﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ

هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

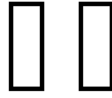
وأنت تقرأ في سورة الأنفال [53]:

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

ولكن مشكلتنا اليوم في التَّجاوب مع كتاب الله الكريم، والتعامل معه، كالعاصي يستمعُ إلى آيات جهنم، وما سيلقى فيها الكافرون والعصاة من شديد العقاب والعذاب، فيطرب لصوت القارئ، ويضرب صفحاً، أو يتعامى، أو يتجاهل وعيد الله لدفعها.

وما رأيت أمةً أهلكها شيء كجهلها للحقائق، ولا علة قضَت على الأمم على مدى الدهور والعصور كإهمالهم العمل بما يعلمون. فمتى ندركُ أن الإسلام حركةُ إنعاش وإصلاح للحياة إذا شردت فنصلح أنفسنا، لتصلح أقوالنا وأعمالنا، ونسعد في الدنيا والآخرة؟

فلي كبدٌ مقروحةٌ من بها كبداً ليستْ بذاتِ



تصحيح فَهْمٍ خاطئ

يُقْبِلُ كثيرٌ من الشباب على أمورٍ كثيرة دون وعيٍ ولا بصيرة، فهذا يقودُ سيارته برعونة وسرعة جنونية، فيعرِّض نفسَه وغيره للخطر الماحق، وكم من شاب بعمر الورود ثكلته أمه إثر حادث أليم! والناس يقولون: «هذا نصيبه - قضاء وقدر...» وكأنهم لجهلهم بحقيقة الدين يلتمسون لرعونته وانتحاره عُذْراً، وهذا انتحارٌ بلا ريب، وإذا قتل غيره فأرى أن يُعتبر القتل عمداً، لأنه سَلَكَ طريقاً يؤدِّي إلى قتل نفسه، أو قتل غيره، أو قتلهما معاً، ولو عُوقب أمثال هذا الشاب الأرعن عقوبةَ مَن قَتَلَ عمداً - إذا قتل - لامتنعَ الشبابُ الطائش، التائه، الشارد، العابث عن الرعونة، والحمق، ولسلمتْ أرواحُ الناس، ودماؤهم، وأموالهم، من الخطر، أو التلف، والضياع:

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 179]

فالمجتمعُ العاقلُ، السليمُ، يقيمُ القصاصَ، ويعاقب المجرم والمسيء ليتقي الجريمة والأخطار، ويحمي الجميعَ من مفاسد الأشرار.

فذاك شابٌ يقدمُ على خطبة فتاة استهواه حديثُها المزيَّف، أو شكلها الفاتن؛ الذي أعطته المساحيقُ والزينةُ غير حقيقته، دون أن يدرسَ خُلُقها وخُلُق أهلها، ودون أن يرعى التناسب المطلوب بينهما في السن، والثقافة، والجمال، والطول، والحال الاجتماعية، والعادات، والتقاليد، و...

ينصحه أبواه بالخير، ويبصّرانه بالأمر، فيعرض عنهما، ويتبع هواه، فإذا لم يفلح ذلك الزواج - وهو الغالبُ - عضّ على يديه نادماً. ولات ساعة مندم، فقال أو قال الناسُ: «نصيب، لا تلوموه...».

والنصيبُ هو الذي يناله الإنسانُ بعد أن يسدّد إلى هدفٍ ما بعناية، وبصر، وبصيرة، وتمحيص، وتدقيق، فإن أحسنَ التسديدَ أصاب ما يريد، وكان النصيبُ خيراً، وإن تعامى، أو تجاهل، أو أعرض عن الوجهة السليمة، ورمى السهمَ عن طيش، ورعونة، وهوى، لم يصب خيراً، وكان الندم والخسارةُ عاقبة أمره:

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: 81]

والله تعالى ورسوله ﷺ أمَرَا بالحذر، وأَخْذ الحيطـة، وحماية النفس، وحُسْـن الاختيـار، والتسـديد، ليظفر الإنسـان بخـير ما يريد.

ففي القرآن الكريم:

﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء: 71]

﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: 195]

﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ [النساء: 29]

وفي الحديث الشريف:

«تخيَّروا لنطفكم، وأنكحوا الأَكْفَاء»[1].

«إذا أتـاكم مَن ترضـون دينه وخُلُقه فزوِّجـوه، إلاَّ تفعلـوا تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ عريض»[2].

«تُنكح المـرأةُ لأربـع: لمالهـا، وجمالهـا، وحسـبها، ودينهـا، فاظفرْ بذات الدِّين تربتْ يداك»[3].

أي: افتقـرت إن لم تظفر بـذات الـدين. والظفـرُ يـأتي بعد حُسْن الاختيار، وهذا يتطلَّبُ وعياً، ودراسة، وفهماً، واستشـارة لأهل الوعي، والخبرة، وأناةً، وحلمـاً، وحُسْـن تسـديد، ليتحقق الظفر بخير النساء.

«هَلاَّ بكراً تلاعبها وتلاعبك»[4].

أي: هلا تـزوجت بكـراً... وفي الحـديث حثّ على اختيـار الأفضل، وحُسْن الانتقـاء؛ فـإن «الأبكـار أعـذب أفواهـاً، وأَنْتَق أرحاماً، وأرضى باليسير»، كما ورد في الأثر[5].

وقد نصح صالحٌ حكيمٌ ولدَه فقال:

«يا بـني! إيـاك والجمـالَ البـارعَ، فإنه ما فـاق الجمـال إلا لحقه في العرض مقال.

وأنشد:

ولن تمرَّ بزرعٍ مونقٍ أنِقٍ   إلا وجدتَ به آثارَ منتجع

فإذا ظفرتَ به فاستره، وحافظ عليـه، واحمه من النظـرة الطائشـة، والكلمة الفاحشـة، ومن أنظـار النـاظرين، وطمع الفاسدين».

ألا تـرى إلى الجـوهرة، أو اللؤلـؤة، أو قطعة المـاس، تظهرها فيطمع بها الطامعون؟

---

[1] (?) رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي.

[2] (?) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم.

[3] (?) رواه البخاري ومسلم.

[4] (?) رواه البخاري ومسلم.

[5] (?) رواه الطبراني. «أنتق أرحاماً»: أكثر أولاداً.

ونصح آخرُ ولده فقال:

«عليك بالبكر فهي لـك، أما الـثيب فهي لك وعليك إن لم يكن لها ولد، فإن كانَ من غيرك فهي عليك لا لك».

أي: تشغل به، ولا تهتم بشؤونك.

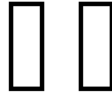
وكـلُّ هـذه النصـوص والنصـائح دليـلٌ على وجـوب حُسْـن الاختيار، وأنَّ الإنسانَ بيده – وهو مختـار، حـرُّ التصـرف – أن يفـوزَ، وأن يظفـرَ بالأفضل لو أراد وسـعى، فـإن أهمل ضـلَّ وغوى، فخاب وخسر.

وبما أنَّ الخـاطبَ والمخطوبـةَ لا يعـرفُ كـلٌّ منهما الأمـور الغيبية، كالعمر، ونيّة القلب عند الآخر، ومستقبل الأيـام معـه؛ ذلك لأن معدن كلٍّ منهما لا يظهرُ على واقعه إلا بعد الزواج، فـالأكثرون يتصـنَّعون ويتكلَّفـون قبل الـزواج ما ليس فيهم؛ ليقنع الطّرف الآخر فيوافق، حتى إذا تمَّ الزواجُ عاد كـلٌّ إلى طبيعته وعاداتـه، وقد لا تـروق للجـانب الآخر فيقع الخصـام، وقد يطول فيؤدِّي إلى الطّلاق.

ومن أجل سلامة كلٍّ منهما من الوقـوع في سـاحة النـدم، فقد شُرِعَتِ الاسـتخارةُ، حيث يسـتخيرُ كـلٌّ من الـزوجين ربَّه عالمَ الغيب والشـهادة، داعيـاً، ومُتضـرِّعاً، وراجيـاً أن يرشـدَهُ اللهُ تعـالى إلى الخيـر والسـلامة، فـإن كـان في ذلك الـزواج خـيرٌ له في دينه ودنيـاه وآخرته تمّمه اللـه، وبـارك فيـه، وإن كان غير ذلك صَرَفه عنه، وقدّر له الخيرَ في غيره. يدعو ذلك بعد ركعتين هما سُـنَّةُ الاسـتخارة، والله يرشـدُ عبـده لما فيه خيره.

والمؤمنُ الصَّادقُ الصـالحُ يـرى في كـلِّ ما يقـدِّره اللـهُ له خـيراً، فـإنْ أُعطِيَ رضي وشـكر، وإن مُنِعَ رضي وصـبر. فهو راضٍ في كلتا الحـالين، في السـراء والضـراء. ومن كـان مع الله كان اللهُ معه، فيسَّر أمـوره، وشـرح صـدرَه، وفتح أمامه أبوابَ الخير، وأغلق أبوابَ الشر:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِـيعُ أَجْـرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف: 30]



هل الإنسان مُسَيَّر أم مُخيَّر؟

وبعد هذه الرحلة الملخَّصة الممتعة مع القضاء والقـدر في طريق شيِّق شائك، تمتعنا بوضوحه، وأزلنا شوكه، ووضّحنا ما خفي على العامـة، وما يبحث عنه الخاصـة، قطعناه على بصيرة وبصر، وفكر، وتعقّل، ونظر؛ فربَّ سائل يقول:

ألا تلخّص لنا فتخبرنا: هل الإنسانُ مُسَيَّر أم مُخَيَّر؟ أم ماذا؟

والجواب أنَّ من الخطأ أن نقول: إنه مخيَّر في كل شيء كما أن من الخطأ أن نقولَ: إنه مُسيَّر في كل شيء، ولعلَّ الوسطيةَ في الجواب هي الصواب.

إنه مسيَّرٌ في أمور، مُخَيَّر في أمور أخرى.

والآية القرآنية في سورة الرعد [15]:

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ [الرعد: 15]

تفتح أمامنا آفاقاً لهذا الجواب، بإشارة النص، فالإنسانُ مُسَيَّرٌ فيما:

1- كان فيه، كلون بشرته، ودقّات قلبه، وطول قامته، وعمل أجهزته في جسمه كالهضم و... ولو كان نائماً رحمةً به، ولطفاً.

2- أو عليه ككونه وَلَد فلان وفلانة، ولد في بلدة (كذا)، وسيموت في بلدة (كذا) يوم (كذا) بعد عمر مقداره (كذا)، لا يملك الإنسانُ أن يغيّر، أو يبدّل، وليس وراء هذا التسيير مسؤولية؛ لأنها أمورٌ فُرِضَتْ عليه لحكمةٍ، ورحمةٍ، وليس للإنسان في هذا ثوابٌ، ولا عليه عقاب، إنما يُثابُ إذا شكر الله وحمده على نعمه، ويُعاقب إذا أنكر فضل الله عليه.

والإنسان مُخيَّر فيما صَدَر منه، وعنه، من قول، أو عمل، عن إرادة واختيار – وهو راضٍ بذلك – وقد رتَّب اللهُ تعالى على ذلك مسؤولية، فيثاب صاحبُها إن أحسن، ويُعاقب إن أساء؛ لأن مفتاحَها بيد الإنسان، فإن نازعتْهُ عينُه للنظر إلى حرام، فهو قادر أن يغضَّ طَرْفَهُ وينصرف.

وإن نازعه لسانُه للتكلم فيما يحرم، فهو قادر أن يضمَّ شفتيه، ويغلق فمه، وينصرف.

وقسْ على ذلك اليد، والرجل، وبقية الأعضاء والحواس، فهو قادرٌ أن يكفّها عن كلِّ معصية وحرام، وأن يُلْزِمَ نفسَه

الطاعةَ والحلال، ما دام حرَّاً، مختاراً، راضياً، غَيَر مُكْرَه.
قال سيدنا علي كرم الله وجهه، ورضي عنه:
«إنَّ الله أمر تخييراً، ونهى تحذيراً، وكلَّف تيسيراً، ولم يُعْصَ مغلوباً، ولم يُرْسِل الرسلَ إلى خلقه عَبَثاً، ولم يخلق السموات والأرضَ وما بينهما باطلاً، ذلك ظنُّ الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار».
فإن أكره الإنسان على ما لا يجوزُ إكراهاً ملجئاً رخّص له - ليحمي نفسه - أن يفعلَ ما أُكْرِهَ عليه، دون أن يوقع ضرراً بأحد، وعليه أن يختصرَ ذلك إلى أقلِّ ما يستطيعُ، فالضرورةُ حين تبيحُ المحظور تقدّر بقدرها زماناً ومكاناً.
فمن نفد زادُه في صحراء قاحلة، وأشرف على الموت، ولم يجد إلا لحم ميتة، أو خنْزير، فله أن يأكل لقيمات يذهبن عنه خطر الموت، ويسأل الله أن يجدَ له فرجاً، قال تعالى في سورة البقرة [173]:
﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾
وقال في سورة الطلاق [2-3]:
﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾
فإن أُكره على الشرك، والقتل، أو الزنا، فالراجحُ والأولى أن يرفضَ، ويعفَّ، ويمتنع، فإن قُتِل مات شهيداً، وذلك حَفاظاً على العقيدة الصحيحة، والأرواح، والأعراض.
وفي سورة الفرقان [68] وصفٌ لعباد الرحمن، منه:
﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ﴾
وياسر وزوجته سُمَيَّه أُكْرِها على الكفر، فامتنعا، فَقُتِلا تعذيباً، فكانا أول شهيدين في الإسلام - رضي الله عنهما - وكان يمرُّ بهما، وهما يعذبان في مكة قبل الهجرة، ولا يملك إنقاذهما، فتدمع عيناه، ويقول: «صبراً آل ياسر فإن موعدَكم الجنة»[1].
ولقد صعب الصبرُ على ولديهما «عمار» فنطق بكلمةٍ من كلمات الكفر لينقذ نفسه من العذاب والموت، وجاء إلى النبي ص يبكي ويشتكي، فأنزل الله تعالى:
﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: 106]
وكان عمار مطمئن القلب بالإيمان، فعرف أن الله تعالى أنزل في عذره قرآناً فيه رخصة، فقرّ بذلك عيناً.

---

1 (?) رواه الطبراني.

وفي ذلك رحمةٌ من الله، ويسر، وعدل، واللهُ عليمٌ حكيم، وتحقيقاً لهذا العدل، واليسر، واللطف الإلهي، ورد الحديث الشريف: «لا طلاقَ في إغلاق»[1]. ولعلَّ من الراجح أن يُحْمَلَ على الشمول في معناه، فلا يقع طلاقٌ من أُغْلِقَ عليه في إرادته، كأن أُكْرِه على الطَّلاق إكراهاً مُلْجئاً، كما لا يقع طلاق مَن أغلق عليه في عقله؛ كأن كان مجنوناً، أو في حال الإغماء، أو نائماً، أو غضبان غضباً شديداً، لا يعي معه ما قال، أو فعل.

ويُؤيِّد ذلك أيضاً حديث: رُفع عن أمتي الخطأ، والنِّسيان، وما استكرهوا عليه»[2]. والعدالةُ تتمُّ إذا رفع الإثم والحكم معاً، إلا ما كان من حقوق الناس، فلا بُدَّ من أدائها، كأن أخطأ فأتلف مالاً لغيره، فلا بُدَّ أن يضمنَ ثمن أو مثل ما أتلف، ولكن دون عقاب:

﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[البقرة: 286]

واختلفوا في طلاق السكران؛ ولعلَّ الأرجحَ أنه يقعُ طلاقُه إن تعدَّى بسكره، وكان ممَّن أدمن على السكر، واعتاد عليه.

وحياةُ المرأة مع زوج سكير جحيمٌ لا يُطاق.

وأسرةٌ سيِّدها سكِّير أسرةٌ مُشَتَّتةٌ، بائسة، يائسة، لا سرور فيها ولا استقرار، ولا أمن ولا سعادة.

ولا يقع إن لم يكن متعدِّياً بسكره، كأن كان مُكرهاً عليه إكراهاً ملجئاً، فطلَّق مستفيداً من الرخصة ليحمي نفسه من الهلاك، فيلغى الطلاق، وتُحْفَظُ الأسرةُ من التشتت، والضياع.

ومما يتفق مع هذه العدالة الإلهية أيضاً وجوبُ العدل بين الزوجات في الأمور المادية؛ التي هي بمقدور الزوج، وفي دائرة طاقاته، كالعدل في المبيت، والنفقة من كساء، وغذاء، ودواء، ومسكن و..

وعدم وجوب العدل في القلب: (المحبة والميل القلبي)؛ لأن الزوجَ لا يملكه، وقد فُطِرَت النفوسُ على حبّ وتفضيل الأكمل، والأجمل، والأنظف، والأبّر، والأفضل، طاعة وأنساً وخدمةً وإخلاصاً، وفي يقول ﷺ: «اللهم هذا قسْمي - بسكون السين - فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»[3].

والآيات في سورة النساء ذكرتْ ذلك بوضوح، فقد منعت التعدُّد إن خاف الزوجُ أن لا يعدل بين زوجاته في الأمور المادية، وهي التي يملكُ العدلَ فيها:

---

[1] (?) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والحاكم.

[2] (?) رواه الطبراني.

[3] (?) رواه أبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: 3]

أي: فتزوَّجوا واحدةً لا أكثر. وعلَّل ذلك في آخر الآية بأن هذا النهي عن التعدُّد لمنع الظلم:

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: 3]

أي: لئلا تجورُوا وتظلموا.

هذا إن خاف أن لا يعدل، فكيف إذا عزم على عَدَم العدلِ بينهن، فتحريم التعدُّد من باب أولى.

أما العدلُ القلبي، فالزوج لا يستطيعُه كما رأيت، فجاز له التعدُّدَ شريطةَ أن يُحسِنَ التصرُّفَ، ولا ينصرف إلى من يحبُّ انصرافاً كلياً، فيظلم ضَرَّتها أو ضرَّاتها، ويتركهن كالمعلقات، لا مُتزوِّجات ولا مُطلَّقات، ذلكَ أنَّ الميلَ القلبي الكامل لإحداهن قد يُؤدِّي إلى ظلم الأخرى أو الأخريات، ظلماً قلبياً ومادياً، فيهجرهن، ولا يبيت عندهم، وينقص حقّهن في النفقة... وقد تدعوه هي لذلك ليطلِّق الأخريات، وينفرد بها ولها.

ولذا قال تعالى:

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾

أي: في القلب.

﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [النساء: 129]

فإذا أحسن الزوجُ التصرفَ، وهو يميل قَلبياً لإحداهن، ولم يظلم الأخرى أو الأخريات في شيء، وأخفى شعوره أمامهنَّ نحو من يُفضّلها قلبياً، جاز التعدد، وسار المركب سليماً آمناً.

وقُلْ مثل ذلك في معاملة الوالدين لأولادهما.

فآيتا النساء في التعدّد والأحاديث التي وردت قبلهما: «لا طلاق في إغلاق». «رُفع عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما اسْتُكْرِهُوا عليه». «اللهم هذا قسْمي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك».

كلُّ ذلك يفسِّر، ويُؤكِّد حقيقةَ، وعدالةَ، ورحمةَ، ويُسْرَ الشرع الإلهي، وهو ما وضَّحناه من قبل، حيث بيّنا:

1-متى يكون الإنسانُ مُسَيَّراً.

2-ومتى يكون الإنسانُ مُخَيَّراً.

ممَّل يُؤَكِّدُ أنَّ القرآنَ الكريمَ والسُّنَّةَ الصَّحيحة يسيران معاً على خط مستقيم واحد؛ ليؤكِّدا ويوضِّحا عدالةَ الله تعالى في خَلْقه، ومع عباده، ومسؤولية الإنسان عن قوله، وعمله، في ساحة الرحمة، والإنصاف، واليُسْر.

وقد ظهر لك – أخي القارئ – أنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ كُلّه

عدل، ورحمة، وتيسير، وتحقيق لمصالح العبـاد، ودرء للمفاسد عنهم. فمن فهم عنه غـير ذلـك، أو جنح عن ذلـك، فقد ضـلَّ سواءَ السَّبيل:

﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَـزَاءً الْحُسْـنَى وَسَـنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً﴾ [الكهف: 88]

والحمدُ لله الذي بنعمته تتمُّ الصَّالحات.